أوراق روسية

Русские Очерки

Ахмед Аль-Хамиси

إلي أصدقاء الثقافة العربية فاليريا كيربتشنكو ، وأولجا فيلاسوفا، وآليج بافيكين، وإلي روح الصديق العزيز إيجور تيموفييف، وإلي مواطن روسي أجهل اسمه أضرم النار في نفسه أمام بيته احتجاجا على الغزو الأمريكي للعراق. إليهم أوراق محبة وتذكارا.
أحمد الخميسي

المقالات:

1- إلي هناك
2- الروسي المتجهم
3- رسائل جندي أمريكي
4- نحن والآخرون
5- العصفور الذي حمى عبد الناصر
6- صراع الألف عام!
7- المسألة اليهودية
8- سنوات الشعر والموت
9- ماهو الفن؟
10- مهزلة نجم ومأساة كاتب
11- عاشت الترجمة ومات النص!
12- حكاية ذبابة حمقاء
13- نجوم كثيرة وقمر واحد
14- أسطورة مواجهة
15- عند الوداع
16- سيرة المؤلف

إلى هناك_

سافرت إلى روسيا في أغسطس 1972. وكانت أول مرة أسافر فيها خارج الوطن. ركبت الباخرة من الاسكندرية إلى لبنان. عبأت حقيبتين بملابسي وكتبي ودفاتر بأفكار قصصية وإبرة وفتلة ونعناع وكيس ملوخية ناشفة وأزرار وأقلام وصور أخواتي وكل أرقام هواتف أصدقائي وكل ما يجرجره مصري إذا خطا شبرا واحدا بعيدا عن وطنه. حقيبتان منتفختان كأنهما حفلة وداع تتحرك معي حشرت فيهما مصر. وما إن تحركت الباخرة وأخذت تضرب الموج بجنبيها – حتى شعرت بأنني ضعيف أعزل، مثل المصارع الذي - في حكاية شعبية أرمينية – كان يقاتل خصومه في دائرة من تراب أرضه، فإذا تزحزح بعيدا فقد قوته.

استندت بمرفقي على سور الباخرة أودع الاسكندرية وأهلي الواقفين على رصيف الميناء ببصر غائم. في اليوم الثاني رست الباخرة عند ميناء بيروت. ركبت تاكسي إلى أحد الفنادق. وفي الطريق رأيت جمال بيروت الآسر. تذكرت مطلع قصيدة لعلي الجارم كانت مقررة علينا في الثانوية وكنا نحفظها صما "بلادي جنة الدنيا وروض ربيعها الأخضر.. تعالى الله باركها وأجرى تحتها الكوثر". قلت لنفسي وأنا أرى بيروت ما كل هذا الجمال الساحر إذن؟!. كان عليَّ أن أستقل الطائرة إلى موسكو. في المطار اكتشفت أن وزن الحقيبتين فوق الوزن المسموح به للراكب. لكي أتفادى دفع قيمة الوزن الزائد (لم يكن معي أي نقود من أي نوع أصلا لأدفع أي شيء) أخرجت كل ملابسي وارتديتها فوق بعض داخل دورة المياه بالمطار. بالإصرار والجهد ارتديت حقيبة من الاثنتين، فارتفعت درجة حرارتي واحمر وجهي! عند مراجعة الجوازات حدق بي الضابط اللبناني وأنا واقف أمامه. نقل بصره ما بين وجهي وجواز السفر وهو يطرف بعينيه إلى أن تيقن من أنني الشخص نفسه لكن أحمر منتفخا لسبب مجهول. رد إليَّ الجواز مستعجبا "تكرم".

هل بدأت رحلتي إلى روسيا من لحظة ركوبي الطائرة أم قبل ذلك؟ عن طريق الأدب حين انتقلنا عام 1959 للسكن في شارع مصر والسودان بعمارة أمام صيدلية "الحياة". حينذاك كنت في نحو العاشرة من عمري عندما بدأت أمد يدي إلى مكتبة والدي في صالة الشقة أفتح ضلفتيها وأسحب من على رفوفها أي شيء مكتوب على غلافه قصص أو روايات. كانت المكتبة تحتوي على عدد كبير من الروايات الروسية. إلى الآن مازالت ماثلة أمام عيني تلك الشقة الفسيحة والصالة التي قرأت على ضوء نهارها بدون توقف رواية دوستويفسكي "آنتوشكا"، ثم المجموعة القصصية المذهلة "ملكة البوستوني" لبوشكين، و"طفولتي" لمكسيم جوركي. تركت تلك الروايات في نفسي أثرا عجيبا كأنما كانت يدي في ماء بارد وإذا بها فوق اللهب. كان حجم الألم الذي تعانيه الشخصية الروسية وحجم التمرد وحجم الأسئلة التي تصارع بها العالم مهولا مقارنة بما كنت قد قرأته من الأدب العربي. ومن خلال الروايات انطبعت روسيا في خيالي مثل ياقوتة ملونة متوهجة بالوجع والانتفاض والندم. كانت الشخصيات الروسية كثيراً ما تنتحر أو تندفع إلى الرصاص في محاولات لتغيير الواقع باغتيال القياصرة، أو تغرق يأسها في الخمر وقرب شموع الكنائس أو تسمو فوق كل شيء، لكنها في كل الأحوال كانت شخصيات "أيديولوجية" ذات مشروع لتغيير العالم والصدام معه وضده ومن أجله. وجميع حوادث الاغتيال والانتحار في روايات

دوستويفسكي مثلما لاحظ ايجور فولجين، تكاد أن تكون حوادث أيديولوجية كما تشهد بذلك محاكمة فيرا زاسوليتش (1879) التي أطلقت النار على مدير شرطة في بطرسبورج لأنه عذب شخصاً معتقلاً قائلة "أردت أن أبين بذلك أنه لا يجوز لأحد أن يهين إنساناً بمثل هذا الإيمان العميق بالإفلات من العقاب". لم تكن تلك الشابة تدافع عن أخيها أو زوجها لكن عن شخص لا تعرفه إطلاقاً، كانت تدافع عن أي شخص وكل شخص، عن مبدأ أنه "لا يجوز لأحد أن يهين إنساناً". وبعد أكثر من مئة عام تشتعل الروح الروسية مجددا. ففي فبراير 1988 عندما كانت أمريكا تستعد لغزو العراق خرج مواطن روسي تجاوز الستين في مقاطعة ليبتسك ووقف أمام باب بيته وسكب البنزين على جسده وأضرم النار في نفسه احتجاجا على مشروع غزو العراق. لقد أراد هو أيضا مثلما فعلت فيرا قبله بمئة عام أن يبين أنه "لا يجوز لأحد أن يهين شعبا بمثل هذا الايمان العميق بالإفلات من العقاب"!

لم أكن أعلم وأنا أقرأ الأدب الروسي بنهم وأتعرف عن طريقه إلى روسيا أن العرب منذ أكثر من ألف عام شقوا طريقهم إلى هناك في أول رحلة قام بها أحمد بن فضلان مبعوث الخليفة العباسي المقتدر بالله عام 922 ميلادي.

مع إقلاع الطائرة منيت نفسي وأنا أختنق بملابسي بأني في طريقي إلى بلاد الصقيع وما إن أصل حتى أتخفف من اختناقي بجبل الملابس الذي كاد أن يخفيني. لكني حين لامست قدماي أرض مطار "شيرميتفا" بموسكو فوجئت بأن روسيا كلها تختنق بموجة حارة غير مسبوقة إلى درجة أشعلت الحرائق في الغابات وهو ما لم يحدث منذ نصف القرن! استقبلتني موسكو "بحرارة" إذن! لم يكن شيء من ذلك الطقس في تصوري وأنا صبي أقرأ في بيتنا "الليالي البيضاء" لدوستويفسكي وألهث مع انفعالات أبطالها: "ها هو الحب قد نزل إلى قلبه بكل هذا الفرح الطاغي، بكل العذابات المضنية! هل ستصدقين وأنت تنظرين إليه أنه لم يكن يعرف حقا تلك التي أحبها بقوة في حلمه النشوان؟ وهل من المعقول أنها لم تكن تلك المنطرحة على صدره منتحبة عندما حل الفراق في ساعة متأخرة غير ملقية سمعا للعاصفة التي كانت تعربد في السماء ولا للريح التي كانت تقطف الدموع من أهدابها؟ أيعقل أن كل ذلك كان حلما؟!". لم يكن ليخطر ببالي وأنا ألتهم تلك السطور أنني يوما ما سأرى روسيا التي بدت في خيالي ثلوجاً بيضاء وزحافات فى الجليد ورجالاً يرتدون القلنسوات الدافئة ومنافيَ في سيبيريا ومقاصل وصورا من قصص جوركي وتشيخوف وأنات الفلاحين لدى جوجول وتولستوي، وثورة بدلت وجه الحياة وحفرت شعارها في الذاكرة "بالأمس كان باكرا، وغدا يكون متأخراً، فإما أن تقع الثورة اليوم أو لا تقع".

مع هبوطي إلى مطار موسكو حل عليَّ شعوري بالغربة. سرت حاملا حقيبة ومرتديا أخرى عاجزا عن فهم أي شيء مما يقال حولي بالروسية. تخطيت الاجراءات الجمركية ووقفت في صالة المطار أنتظر أن يُنادى علَّيّ من الاستعلامات لألتقي بمن يستقبلني من منظمة التضامن الآسيوي الإفريقي. ساعات ولا أحد. أتلفت حولي في وقفتي حائرا مثل غراب حط على طريق سريع بين سيارات طائشة. عضني الجوع. لم يكن في جيبي سوى روبل روسي واحد كنت أحتفظ به وأنا في مصر لأن عليه صورة بوشكين أمير الشعراء الروس. تنهدت بأسف وأنا أدفع بالروبل لعاملة في

البوفيه معتذرا في سري للشاعر العظيم وحصلت على سندويتش ثخين جزاء خيانة الأدب والأدباء. من شعوري بالغربة خيل إليَّ أنني أول مصري في التاريخ يصل إلى هذه البلاد . لم أكن أعرف أن هناك مصريين اثنين سبقاني إلى هنا منذ مئة وثلاثين عاما بحثا عن الذهب! بعبارة أدق بحثا عن كيفية استخلاص الذهب من الرمال! كان ذلك عندما شرع محمد علي باني نهضة مصر الحديثة في غزو السودان عام 1820، واجتذبه إليها ضمن أمور أخرى ذهب فازوغلي بجنوب سنار. هناك عثرت القوات المصرية على رواسب تحتوي على الذهب، لكنها لم تجد طريقة لاستخلاصه. في عام 1845 أرسل محمد على إلى روسيا طالبين مصريين اثنين هما: إيليا داشوري، وعلى محمد، لدراسة استخلاص الذهب فأثار الاثنان بملامحهما الإفريقية وبشرتهما السمراء دهشة أهالي الأورال الروس! في مطلع 1847 عاد الاثنان وقد أصبحا مهندسي تعدين إلى مصر وبدون إبطاء أرسلهما محمد على إلى النوبة وشرق السودان وراء الذهب! من المؤسف بالطبع أن أحدا منهما لم يسجل رحلته بينما احتفظت الوثائق الروسية بسيرة إيجور كوفاليفسكي المهندس الذي درب المصريين الاثنين وبعثته التي ترأسها إلى أعالي النيل وتألفت من عالم نباتات وطبيب ورسام معماري وأسطى تعدين وغاسل رمال وضباط مصريين. إيليا داشوري، وعلى محمد أول من جاء إلى روسيا من المصريين. تعلما وعاشا في الأورال حيث تصل درجة البرودة إلى عشرين تحت الصفر! وبعد مئة وثلاثين سنة أقف أنا هنا مختنقا من الحر!

انتهيت من السندويتش ودخلت إلى دورة المياه. هناك أخذت أخلع ملابسي وسط دهشة من بالدورة وأعيدها مطوية قطعة فقطعة إلى حقيبتي. خرجت بعد ذلك وأخذت أفتش بعيني عن مقعد شاغر بين أرائك الانتظار مؤهلا نفسي لجلسة طويلة.

حل عليّ المساء ثم الليل وأنا جالس أفرد بدني وأجمعه على مقعدين متقابلين . شعرت أن ثمة خطأ في كل ذلك. في بلدي لو قلت يا محمود يرد عليك ألف واحد حتى لو لم يكن محمودا. أما هنا فازعق وقل ماتشاء فلن يعيرك أحد أي اهتمام. يومها لم يكن معي من كل الأرقام الهاتفية للاتحاد السوفيتي العظيم سوى رقم وحيد لمراسل صحفي مصري مقيم بموسكو. تلفت حولي فوجدت مظلات بلاستيكية تغطي أجهزة هاتفية. لكن كيف تعمل هذه الأجهزة؟. عام 1972 كانت الاتصالات عندنا في مصر إما من المنزل أو من عند البقال. لم يكن قد ظهر لدينا ذلك النوع من التلفونات الذي تسقط فيه عملة نقدية وتتصل. وقفت تحت مظلة هاتف لا أدري كيف أستخدمه إلى أن مرت بالقرب مني شابة جميلة تفوح بالعطر. رجوتها بانجليزية مكسرة محرجا من جهلي أن تشرح لي كيفية استخدام الهاتف. نظرت إليَّ بدهشة مهذبة. بهدوء أخرجت من حقيبتها عملة من فئة الكوبيكين أسقطتها في فتحة وطلبت مني أن أدير القرص بالرقم المطلوب. جربت ذلك وهي واقفة بجواري، وكان ذلك أول اتصال هاتفي أوتوماتيكي في حياتي! وقفنا نحن الاثنين نتطلع لبعضنا البعض بانبهار، أنا مبهور بالاختراع المذهل وهي مبهورة بإنسان لم ير من قبل اختراعا بسيطا كهذا!

نجحت في الاتصال بالأخ محمد المصري. لكنني كنت ما إن أنطق باسمي وبأنني في المطار حتى يتحشرج صوت محمد وينقطع الاتصال! كررت المحاولة بفضل كوبيكين آخرين من الفتاة المبهورة فتجددت الحشرجة. نظرت إلى الشابة الجميلة محرجا من جهلي بالهاتف ومن لغتي الانجليزية ومن حشرجة المصري، وشكرتها. ابتسمت وانصرفت برشاقة في هالة من سعادة من رأى لتوه عرضا سحريا. فوضت أمري لله. وبت ليلتي الأولى في المطار مشدودا على مقعدين متشبثا بالحقيبتين أتساءل "ما الذي جاء بى إلى هنا؟".

في الصباح لم أصدق نفسي حين سمعت من الاستعلامات نداء على اسمي بالإنجليزية. وثبت من مكاني. هرولت وأنا أجرجر الحقيبتين. فوجئت بشاب أسمر يقدم نفسه إليَّ على أنه "فلاديمير من منظمة التضامن". عاتبته "قضيتُ هنا يوما كاملا فلم لم تأت بالأمس؟". قال بهدوء "الأمس كان يوم الأحد العطلة الرسمية في الاتحاد السوفيتي"!

قادني فلاديمير إلى سيارة ركبناها متجهين إلى بيت الطلبة الأجانب بمنطقة بروفسيوزنايا. في الطريق رحت أتطلع إلى الشوارع العريضة مذهولا. الشارع الواحد منها بعرض ثلاثة شوارع في القاهرة. وصلنا إلى بيت الطلاب واستلمت مكانا في حجرة مع طالبين آخرين، أحدهما أفغاني والثاني بحريني. بعد أيام كتبت لوالدي أقول له "أكتب إليك من المستقبل"! كنت أتخيل أنني وصلت إلى أرض الاشتراكية وبذلك فإني انتقلت إلى مستقبل العدالة المرجوة، حيث لا جوعى، ولا استغلال، ولا تفرقة بين البشر. لكن الواقع أخذ يتكشف عن كونه جزءا من الحاضر وليس جزءا من المستقبل.

أقمت في بيت الطلاب الأجانب سنة تحضيرية لدراسة اللغة. بيت قديم من خمسة طوابق، الأول والثاني منها لقاعات الدراسة، الثلاثة الأخرى حجرات نوم ومعيشة الطلاب. لم أكن أعرف كلمة روسية واحدة، لهذا لم أجرؤ على القيام بخطوة واحدة خارج البيت. كان أقصى خروجي أن أقف أمام مدخل البيت أتأمل العابرين. ولم يكن ثمة مصري آخر غيري وسط بحر من الطلاب العرب والفرنسيين والكوبيين وغيرهم، لهذا كان زملائي العرب كلهم يعرفونني بالمصري، المصري راح، المصري جاء، وخلاص . بمرور أكثر من شهرين استغربت من أنني وصلت إلى روسيا لكني لم أتخط حدود بيت من خمسة طوابق! خطر لي أنني سافرت إلى بيت وليس إلى روسيا! لم أكن أعرف أحدا هناك على الإطلاق سوى"محمد" الذي يتحشرج صوته عند اللزوم! فعكفت مهموما على كتب اللغة الروسية إلى أن جاءني ذات يوم شاب فلسطيني اسمه وليد كان يدرس معنا وقال لي "يا رجل حرام عليك شهرين ماخرجت من البيت؟. أنا أخي في روسيا منذ عامين. وقد جاءني عدة مرات واصطحبني لجامعة باتريس لومومبا وأنا أعرف الطريق والمواصلات جيدا. تعال معي نقوم بزيارته، ويبقى اسمك خرجت تتهوى شوية". اشترطت لأخرج معه أن نأخذ عنوان المسكن من المناوبة الروسية الموجودة في مدخل البيت لنتمكن من العودة إن حدث شيء. سجلت لنا المرأة الطيبة العنوان ودسه وليد في جيبه وانطلقنا. خرجت إلى شوارع موسكو للمرة الأولى وأنا سعيد بوجوه الناس من حولي. ركبنا ترمواي، وهبطنا، وسرنا قليلا حتى محطة ترولي باص. جاء الترولي وركب

مصطفى وقبل أن ألحق بالركوب كان باب الترولي قد انغلق أمامي! هتفت مذعورا "العنوان يا وليد"! الفكرة المنطقية التي خطرت لي أن أركب الترولي باص التالي بأمل أن وليد سينتظرني في المحطة القادمة. هكذا فعلت. وقفت بجوار السائق أتطلع إلى وجه وليد ملتصقا بالزجاج الخلفي للسيارة التي أمامي ينظر نحوي. قلت لنفسي المحطة القادمة نلتقي. لكن الترولي الأمامي فجاة انحرف يمينا وانعطف الترولي الذي أنا بداخله يسارا، ومضى كل منهما بعيدا في اتجاه مختلف!

هبطت عند أول محطة وظللت واقفا. أمطرت عليَّ ساعتين. وأنا كلما دنا أحد من المحطة أسأله "الأخ عربي؟". بمعجزة ظهر شاب لبناني. شرحت له أنني تائه. قال "بسيطة أوصلك. أين تسكن؟" قلت "العنوان مع وليد"! كان طيبا إلى درجة أنه اصطحبني في تاكسي وظل يدور به على كل بيوت الطلاب الأجانب لأنتقي من بينها بالشبه مسكني! صعدت إلى حجرتي مبللا مرهقا. فتحت الباب ورأيت وليد جالسا على طرف سريره وجهه بين كفيه مثل فأر مذنب. قلت له "مش قلت لك؟". نهض ودق كفا بكف وقال بذهول: "لا.. بس هاي والله عجيبة. عمرها ما حصلت معي يازلمى"!

في كل الأحوال ذلك كان خروجي الأول من بيت في روسيا بخمسة طوابق إلى روسيا، بعدها عرفت الطرق وانفتحت أمامي حياة أخرى كاملة، تعرفت خلالها شيئا فشيئا إلى الإنسان الروسي الذي يتصوره الكثيرون على غير حقيقته متجهما صارما.

* * *

الروسي المتجهم!

الفكرة السائدة لدينا عن الإنسان الروسي أنه جهم عابس لا يستجيب للمزاح والنكتة. هذا هو الانطباع الذي يتركه الإنسان الروسي من الوهلة الأولى. وإذا كنا نردد أن حياة الصحراء القاسية أضفت على العرب خشونة، فإن حياة الصقيع والجليد أضفت على الروس شيئا مماثلا. لكن تحت الجليد الروسي الظاهر ثمة روح عاطفية حارة محبة للمزاح، وكل ما يحتاجه المرء هو اختراق المظهر الجليدي للوصول إلى الروح الحارة، مثلما يفعل الروس أنفسهم حين يتجه بعضهم إلى نهر الفولجا في الشتاء القارس ويقوم بثقب السطح الجليدي للنهر بمقدار يسمح له بتغطيس جسمه في الماء بينما يظل رأسه مرفوعا في الهواء. تحت الجليد تجري مياه دافئة، كما تجري خلف مظهر الروسي المتجهم روح عاطفية تهوى الأنس والفكاهة إلى أقصى درجة.

والروس أصحاب نكتة، وهي نكتة لاذعة ومفكرة. والكلمة العربية "نكتة" تتضمن جزءا من نطق الكلمة ذاتها باللغة الروسية "анекдот" أوالعكس. والأدب الروسي حافل منذ بداياته بروح السخرية الأصيلة بدءا من نيقولاي جوجول وقصصه ومسرحياته العظيمة مثل المفتش العام مرورا بأنطون تشيخوف وميخائيل زوشنكا وغيرهم. وقد ضحك الجمهور المصري مع مسرحية "المفتش العام" لجوجول حين قدمها إسماعيل يس معربة عام 1955، وعبد المنعم مدبولي بعد ذلك في الستينات مع بداية البث التلفزيوني. والنكتة عندهم تشتبك في الأغلب الأعم بفكرة أبعد من القهقهة، وتتصل بقضايا الثقافة والعلم والفن والفلسفة، وكثيرا ما تستمد النكتة عندهم شخصياتها من الأدب وأحداثه، من الفرسان الثلاثة لألكسندر دوماس الأب، أو عطيل شكسبير، أو آنا كارنينا لتولستوي، وأحيانا من مواضيع الأساطير الشعبية، ويأتي الكثير من النكات في شكل قصيدة شعرية محكمة الوزن مما يدل على علاقة الناس الوثيقة بالأدب والشعر. ومن ذلك تلك النكتة التي تتناول قصيدة شهيرة للشاعر أندريه فوزنيسنسكي ويقول فيها "ذات يوم عاش فنان فقير.. باع بيته واشترى

بثمنه لمحبوبته مليون زهرة حمراء". وتأتي النكتة على هيئة سؤال "إذا كان الفنان اشترى وردا لمحبوبته بسعر دولار للوردة، فكم يكون سعر البيت الذي باعه علما بأنه اشترى لها مليون وردة ؟"!

أما جلسات السهر الروسية في المناسبات فإنها تمتد إلى ما شاء الله حافلة بالطعام الذي لا يرفع من على المنضدة والنكات والذكريات الشخصية والمصارحة الحميمة. وتتدفق في الاحتفالات الروح الروسية الدافئة أشد ما تكون، ويظهر ذلك عند استقبال رأس سنة جديدة، إذ يستعد الروس لتلك الليلة قبلها بأسبوع، وقبل حلول الثانية عشرة يخرج الروس إلى الساحات المفتوحة أمام البيوت، وإلى الشوارع الرئيسية، والميادين، يقفون يتابعون بصيحات الفرح إطلاق الألعاب النارية في السماء، وما إن تدق الساعة معلنة بدء عام جديد حتى ينكسر السطح الجليدي ويتبادل الجميع من دون سابق معرفة التهاني والأمنيات والقبلات ويرقصون ونثار الثلج الفضي يجري في أشعة أعمدة النور. في هذه الليلة التي تحل عادة في الشتاء يقف الناس معا يشعرون أنهم تحت سماء واحدة في قبضة زمن واحد وأمل واحد تخفق قلوبهم بمصير مشترك. الروح الروسية التي تجري بدفء تحت الجليد تتضح بقوة في علاقة الروس بالطبيعة والحيوانات الأليفة. فهم يتكلمون مع القطط والكلاب والأرانب وتحل عليك الدهشة حين تراهم يحدثونها ويوضحون لها بمختلف الحجج الخطأ والصواب في أمر أو آخر. لكن هذه الروح تتجلى أعنف ما تكون في الحب. وليس أدل على ذلك من قصة حب الشاعر الروسي الكبير بوشكين وعشقه لناتاليا الذي تسبب في إنهاء حياته مبكرا. وكانت ناتاليا واحدة من أجمل فتيات مدينة بطرسبورج، أحبها بوشكين واقترن بها عام 1832وهو شاب في الثالثة والثلاثين وكانت شهرته قد أطبقت الآفاق بعد أن أجج شعلة الحرية في ظلام العهد القيصري، ووجد القيصر نيقولاي - الذي لم يفلح في كسر قلم الشاعر بنفيه إلى الجنوب – وسيلة أخرى للتخلص من بوشكين فأوحى إلى ضابط فرنسي يدعى "جورج دانتيس" بملاحقة ناتاليا ومغازلتها في حفلات المجتمع الأرستقراطي ليثير غيرة بوشكين ويستفزه. ونجحت المؤامرة الصغيرة في إثارة دماء الشاعر الحارة، فدعا الضابط الفرنسي في 27 يناير 1837 إلى مبارزة انتهت كما توقع القيصر بإصابة بوشكين إصابة قاتلة توفى بعدها واسم ناتاليا على شفتيه وفي قلبه.

برحيل الشاعر تحولت قصة العشق والغيرة إلى أسطورة وأغنيات عن الحب حتى الموت يترنم بها العشاق إلى يومنا. وإذا كان الروسي مستعدا للموت من أجل من يحب، فإن المرأة الروسية بدورها قد أظهرت تلك الروح العاطفية الحارة الكامنة تحت الجليد حين تبعت النساء الروسيات أزواجهن إلى منافي سيبيريا بعد انتفاضة النبلاء والضباط في ديسمبر 1825، وبقين مع أزواجهن هناك في أشق الظروف. وقد تغنى الشاعر الروسي المعروف نيقولاي نكراسوف بمحبة وبطولة المرأة الروسية في قصيدته "النساء الروسيات". وفي عام 2008 أقيم نصب تذكاري في مدينة توبولسك بسيبيريا تخليدا لذكرى النساء الوفيات. ويحفل الأدب الروسي بقصص الحب التي تشير إلى طبيعة ذلك الشعب الحارة التي تتدفق تحت قشرة رقيقة من الجليد، يكفي أن أذكر هنا رائعة تورجنيف "آسيا" وقصصا أخرى كثيرة يموت فيها أبطالها بحثا عن الحب، أودفاعا عنه، أو شوقا إليه.

الشتاء الروسي يكسو بياض الثلوج الشاهق كل شيء: الشوارع، قمم الأشجار، الأرائك في الحدائق، سقوف السيارات، معاطف المارة، وتتطاير ندف الثلج الرقيقة في ضوء أعمدة النور كأنها تنهد ملائكي. هذا المشهد بدا لي، ومازال، مثل لحظة من حكاية أسطورية تصادف أنني انزلقت إلى صفحاتها. هذا الشتاء كان دوما يذكرني بحكاية الإمبراطورة آنا إيوانوفنا عام 1740 حين استدعت إليها أعظم مهندس معماري في بطرسبورج وهو "بروبكين" ليبني لها قصرا حقيقيا ضخما كله من الجليد! بناه المهندس بالفعل. أقام الحجرات كلها من الجليد: حجرات النوم والطعام والضيوف والحمام. كل قطع الأثاث والأرائك والمناضد. على المناضد تراصت أوان مطلية وبداخلها طعام جليدي. المرايا المصقولة والساعات فوق مواقد التدفئة والحطب الذي بداخل المواقد كله من الجليد. حول القصر امتدت حديقة بأسوار جليدية ارتفعت فيها أشجار جليدية جلست على فروعها طيور جليدية. أمام القصر المعجزة انتصبت مدافع من الجليد تطلق لهبا كأنما من البارود! أدهشت الإمبراطورة عصرها بالقصر الأعجوبة الذي تدفق الناس لرؤيته قبل أن يذوب بحلول الربيع والدفء. ذاب القصر، لكن الطبيعة الروسية كانت تعيد بناءه كل عام، وتهمس بالأسطورة من جديد في آذان المارة بشوارع موسكو.

في يوم شتوي من تلك الأيام، بعد ثلاث سنوات من وجودي في روسيا، كنت أقطع شارعا رئيسيا قاصدا محل كتب، فاستوقفني عند إحدى دور العرض"أفيش" عن فيلم أدهشني بصورة ضخمة لفاتن حمامة وعماد حمدي. الفيلم كان "بين الأطلال" الذي أخرجه عز الدين ذو الفقار عام 1959. في البداية شعرت بالزهو لأن لدينا أفلاما تعرض في أوروبا. بعد ذلك حل الحنين إلى مصر. دخلت السينما وأنا أتوقع أن أرى عددا قليلا من المشاهدين. لكن الصالة كانت ممتلئة عن آخرها بالمتفرجين الروس ذوى المظهر المتحفظ الجليدي. أظلمت الصالة وبدأ العرض. بعد نصف الساعة من تعاقب أحداث الفيلم الرومانسية الحزينة أخذت تعلو من هنا وهناك زفرات حرى، وبعد قليل سمعت القاعة كلها تجهش بصوت واحد بالبكاء والرؤوس تتأرجح في العتمة بتأثر وصوت النهنهات يعلو على صوت عماد حمدي وهو يهتف من الشاشة لفاتن "اذكريني"!

تلك كانت المرة الأولى التي تغمرني فيها روح الدفء التي يخفيها الروسي بخجل تحت مظهر عابس!

* * *

رسائل جندي أمريكي

قلت إن روح السخرية والمزاح سمة أصيلة في الإنسان الروسـي خلافـا لما يبدو عليه لأول وهلة، وأن تاريخ الأدب الروسي منـذ بـدايته يكشـف ذلـك الملمح بوضوح. وأود هنا أن أقدم للقارئ من ترجمتي قطعة أدبيـة سياسـية ساخرة، ليست من كلاسيكيات الأدب الروسي، لكنها عمل حديث يسخر فيه "ميخائيل زادورنوف" الكاتب المعروف من جهل الجنود الأمريكيين الـذين ساقتهم الإدارة الأمريكية لاحتلال العراق، جهل يجسد المفارقة، المضحكة وربما المأساوية أيضا، المتجسـدة فـي جنـود يحـاربون ولا يعرفـون هـدفا لحربهم وأحيانا لا يعرفون أين يقاتلون ومن يقتلـون. وسـيجد القـارئ فـي هذا النص - إلى جانب متعة الأدب الساخر- موقف الشـعب الروسـي مـن الغزو الـبربري للعـراق. الكـاتب "ميخائيـل زادورنـوف" أحـد أشـهر كتـاب روسيا. النص من كتابه المسمى "عالم مجنون مجنـون" الـذي صـدر فـي موسكو عام 2005، وقد اختار له الكاتب شكل الرسائل التي يبعـث بهـا أحد الجنود الأمريكيين إلى زوجته.

رسائل جندي أمريكي

(1)

أيتها العزيزة. اليوم عندنا فـي القاعـدة العسـكرية عيـد. سـنطير إلـى العراق عما قريب. هـذه بلـد بعيـدة جـدا. الـزملاء يقولـون إنهـا أبعـد مـن المكسـيك. وقـد نبهتنـا القيـادة إلـى أن الحـرب سـتكون صـعبة جـدا لأن الحرارة هناك كمـا يقولـون مرتفعـة للغايـة. وقـد أكـد لنـا السـرجانت أن العراق توجد في جنـوب **إفريقيـا**، بينمـا يجـزم العقيـد الـذي كـان مدرسـا للجغرافيا فيما سبق أن كلام السرجانت غير صحيح، وأن العراق يقـع فـي شمال الهند. وقد توجه إلينا الرئيس الأمريكي بخطاب صباح اليوم، ووضح لنا أن القائد العراقي صدام حسـين لا يريـد أن يتقاسـم معنـا نفـط بلاده، وأن معنى ذلك أن الرئيس العراقي ضد الديمقراطيـة. والآن فـإن واجـب أمريكا الأساسي إدخال الديمقراطية إلى العراق، بمـا أننـا– نحـن الشـعب الأمريكي– الموزع المعتمد للديمقراطية في العالم. وقد أشار العقيد إلـى أن رئيسنا الأمريكي زعيم جريء حقا، لأنه استجمع شـجاعته وقـرر إعلان الحرب على بلد أصغر من بلده بعشرين مرة. أيتها العزيزة.. نحـن جميعـا

واثقون من النصر السريع لأن لدينا رئيسا مباركا، ولـدينا أحـدث الأسـلحة بما في ذلك "البامبرز" المضادة للمشاة وألغام بطعم تفاح الغابـات. لكـن هناك شيئا لا أستطيع أن أعرفه: كيف يمكن أن ننطق الاسم صحيحا: أهـو عراق؟ أم عيران؟

هناك خبر آخر جميل لك. بدءا من الآن سيكون في وسـعك مشـاهدتي في أوقات كثيرة على شاشة التلفزيون الذي سينقل المعركة على الهواء مباشـرة فـترات الاسـتراحة مـا بيـن عـرض مسلسـل "المـوت بفرشـاة الأسنان" والبرنامج الاستعراضي "تأثير العواصـف الشمسـية علـى غشـاء الذكورة لدي ضفادع كاليفورنيا".

أيتها العزيزة.. لا تقلقي عليَّ. لقد أخذت معي كريم لحماية بشرتي من أشعة الشمس.

(2)

تحياتي أيتها العزيزة. لقد وصلنا إلى العراق. بالفعل الجو حار جدا هنا. وحكما بما نراه من حولنا فإن هذه البلد ليست الهند، لأن السكان هنا لا يشبهون الهنود على الإطلاق. المهم أن العقيد أكد لنا أن النطق الصحيح لاسم هذا البلد هو "عراق"، أما "إيران" فقد اتضح أنه اسم مواد مشعة "إيران – 238". وأعلن لنا السرجانت أن المعارك الحربية ستبدأ غدا حسب ما تناهي لسمعه من محطات الإذاعة. قال أيضا إن الإنجليز والبولنديين والإسبان سيحاربون هم أيضا.. لكنه لم يوضح مع من سيحاربون. إلا أن القيادة أفزعتنا حين أخبرتنا أن ثمن الحرب سيكون باهظا، وعلى سبيل المثال ستكون الخنادق خالية من أجهزة التكييف والحمامات. لكننا نحن الأمريكيين أبطال نتحمل كل شئ، حتى لو لم يوزعوا علينا الكوكاكولا المثلجة أثناء المعارك.

(3)

اليوم قمنا– لأول مرة– بشغل مواقعنا. تبين لنا أن أولئك العراقيين متوحشون فعلا. فقد أطلقوا أول أمس نيرانهم على طائرة مسالمة تابعة لنا كانت تقصف مدنهم. وقد أنذرتنا القيادة بعدم وقوع أي منا في الأسر

لأن العراقيين يعذبون العسكريين الأمريكيين ويحرمونهم من "الفشار" بل ولا يسمحون لهم بوضع ساق على ساق على المناضد. إلا أن الأمر المرعب حقا هو تلك الأقنعة الواقية من الغازات السامة التي تم توزيعها علينا. فقد صُنعت في أوكرانيا، وتنبعث منها طيلة الوقت رائحة ثوم وشحم حيوانات. ولهذا قررنا أن استنشاق الغازات السامة أرحم من وضع تلك الأقنعة على وجوهنا. لكننا على أية حال نشعر بأنفسنا أبطالا. بلغي ابني أن "والده سيعود إليه حيا ما لم يرغمونني على وضع ذلك القناع على وجهي.

(4)

أيتها العزيزة.. مع كل يوم يمر يصبح الوضع أصعب فأصعب. مر علينا الآن شهر بكامله ونحن نستنشق رائحة الثوم، ونشعر أن ثمة فيلقا من أوكرانيا بجوارنا في مكان ما. وإذا لم تبدل الرياح وجهتها في الأيام القادمة فإن نهايتنا ستكون سريعة! ولقد تبين لنا أن العراقيين برابرة بكل معنى الكلمة. إنهم لا يعرفون أننا الأقوى في العالم ومن ثم يواصلون هجماتهم دون توقف! أما أجهزة الليزر التي نصوب بها على الأهداف فإنها لا تعمل. نعم. فقد اتضح أن أولئك المتوحشين ليس عندهم حتى تلسكوب لنتعقبه بالليزر! الأسبوع الماضي جاءتنا طائرات مروحية حديثة تحلق على مستوى منخفض بحيث لا يستطيع أحد رصدها. لكن فلاحا عراقيا عطلته إحدى تلك الطائرات فأسقطها بفأس قديمة. وقد رفع البنتاجون ضده قضية لاستخدامه سلاحا لم تقره الأمم المتحدة.

(5)

عزيزتي.. اليوم هو أصعب الأيام التي مرت بنا. لقد تاهت منا مكنة الفشار المتحركة في مكان ما، وكذلك مطبخ "ماكدونالد" الذي يرافق جنودنا. كذلك توقفت دباباتنا عن التقدم لأن إشارة المرورعند حدود بغداد كانت حمراء. فيما بعد تبين لنا أن إشارات المرور كلها عند أولئك العراقيين المتوحشين لا تعمل أصلا. بينما مكثنا نحن واقفين بدباباتنا أمام الإشارة حتى دخل علينا الليل. وأكد لنا السرجانت بعد ذلك أنه لو لم يكن هناك عراقيون لانتصرنا عليهم من زمن بعيد. وأعتقد أنه محق.
وقد طلب الصحفيون منا عند دخولنا بغداد أن نغرقها في النابالم لكي يتوفر لهم الضوء الكافي لالتقاط الصور. كما نبهت القيادة علينا بعدم

قصف شمال بغداد لأن هناك مجموعة من هوليود تصور فيلما جنسيا عن اعتقال صدام حسين باسم "غرام مع صدام في مدينة الأحلام". للقيام بدور صدام حسين رشحوا في البداية عدة أسماء: أولها النجم العالمي أرنولد شفيزنيجر، وتوم كروز،أو جوليا روبرتس. لكن لأن أجور أولئك النجوم كانت مرتفعة للغاية فقد وافق صدام حسين ذاته على القيام بالدور!

عزيزتي.. أحس بالقنوط لأن الحرب توشك على الانتهاء وأنا لم أظهر على شاشة التلفزيون ولا لمرة واحدة. لذلك أخذت أرفع ذراعيي الاثنتين عاليا وألوح بهما أمام الكاميرات لعل وعسى. وأخيرا انتبه المصورون لوجودي وظهرت صورتي على الشاشة مصحوبة بتعليق يقول: "الجنود الأمريكيون يستسلمون ببطولة عند مشارف بغداد". لك الحمد يا إلهي! أصبحت نجما تلفزيونيا أخيرا.

(6)

حبيبتي.. اقتربنا من مشارف بغداد. صادفنا في طريقنا أشجارا جرداء كثيرة التوت فروعها وجفت أوراقها. ورأينا طيورا عديدة، وحشرات، وثعابين ميتة. إذن فقد مرت الفرقة العسكرية الأوكرانية من هنا! أنقذتنا بمرورها لأن القوات العراقية لم تتحمل رائحة البصل الأوكراني وهربت كلها تاركة المدينة خلفها. بعد ذلك دخلت قواتنا الأمريكية البطلة إلى بغداد.

(7)

عزيزتي الغالية.. أشتاق إليك كثيرا. يمكنك الآن أن تباركي لنا. لقد استطعنا بفضل ذكاء السيرجانت أن نلقي القبض على أربعة وثلاثين صدام حسين. أي أكثر بأحد عشرة صدام حسين مما اعتقلته الفرقة العسكرية المجاورة لنا. الأوكرانيون ألقوا القبض فقط على ثمانية صدام حسين كان من بينهم طفلتان وقطة! وقد أرسلت القيادة كل الحسينيين المعتقلين لإجراء فحص "الكود الجيني" لشواربهم. الشئ الجميل أن أحد الحسينيين الذين ألقت فرقتنا القبض عليهم شغل المرتبة الأولى بقرار لجنة التحكيم في المسابقة، بعد أن تأكدت اللجنة أنه "هو". الآن يجمعون المعلومات: من هو؟. المهم أن الرئيس أرسل إلينا برقية تهنئة بانتهاء العمليات بنجاح، وأكد لنا في برقيته أننا دولة محبة للسلام لهذا لا نستطيع أن نترك السلام في حاله! الأرجح أننا عما قريب سننقل هذا "السلام" إلى كوريا الشمالية، وهي على حد قول السرجانت جزيرة تقع في المحيط الهادئ.

ملحوظة: (مساء نفس اليوم) بدأت في بغداد عمليات نهب واسعة النطاق. فقد قام الفيلق الأوكراني بالهجوم علينا فجأة بأقنعته الواقية من الغاز وحاول بمختلف الطرق أن ينتزع منا كل ما نهبناه من العراقيين.

اتضح أن الأوكرانيين لا يتلقون رواتبا مثل بقية الجنود، وأن القيادة عندهم قالت لهم "كل ما ستحصلون عليه في العراق ملك لكم"! لهذا كانت العمليات القتالية بيننا وبينهم من المعارك التي لم تشهد لها الحرب مثيلا في العنف!

عزيزتي.. أشتاق إليك كثيرا وأرجوك إذا لم أرجع إليك أن تبلغي ابني أن والده كان أمريكيا حقيقيا وموزعا بطوليا للديمقراطية في العالم!

* * *

نحن والآخرون

لك أن تتخيل – كما في الحكايات - شخصا عاش بمفرده على جزيرة ولم يلتق بكائن بشري آخر قط. ترى ما الذي يعرفه هذا الشخص عن نفسه؟. الإجابة: تقريبا لا شيء. إنه لا يعرف طاقات الحب والمودة الكامنة في روحه لأنه لم يلتق بامرأة. إنه لا يدرك قدرات القتال بداخله لأنه لم يصارع آدمياً آخر. إنه لا يعي ما تختلج به نفسه من معاني الصداقة والوفاء لأنه لم يصادف صديقا. نحن نجد ونرى ونفهم أنفسنا عبر الآخرين. نحن نعلم ما حققناه وما تقاعسنا عنه فقط عندما نحتك ببشر وحضارات أخرى. لقد أفاقت مصر الحديثة كلها إلى ذاتها عندما داهمها الاحتلال الفرنسي، فاكتشفت بالآخرين مدى التخلف الذي كانت تعيشه بدون مسرح، وبرلمان وإحصاء بتعداد السكان وجريدة وجيش منظم وعلوم. رأت مصر نفسها في غيرها. لهذا سعى العرب مبكرا إلى الاتصال بالحضارات والشعوب. ورست أولى السفن العربية في مياه دير بند في داغستان جنوب روسيا في القرن السابع م، ومن هناك انطلق العرب إلى أذربيجان وجيورجيا وأرمينيا وبلاد آسيا الوسطى، لكنهم لم يصلوا إلى قلب روسيا. فيما بعد قام الأديب والعالم والشاعر أحمد بن فضلان مبعوث الخليفة العباسي المقتدر بالله في عام 922 م بأول رحلة عربية موثقة إلى نهر الفولجا، قلب روسيا للتبشير بالإسلام. وكان بصحبته عدد من المترجمين لأنه لم يكن يعرف اللغة الروسية. وما إن عاد من رحلته حتى سجل وقائعها في كتابه الشهير "رسالة ابن فضلان" ووصف فيه كل ما رآه: ملابس الروس وزينة نسائهم واعتمادهم في حياتهم على التجارة خاصة فراء الحيوانات، واسترعت انتباهه بنية الإنسان الروسي الضخم فكتب يقول "لم أر أبدانا أتم منهم كأنهم النخيل"!

صار كتاب ابن فضلان أول مصدر عربي معروف يشير إلى روسيا، على الرغم من أنه زار أساسا منطقة أتراك آسيا الوسطى على الفولجا التي أمست جمهورية تتارية تحتفل حتى الآن بيوم زيارة ابن فضلان لها في 12 مايو عام 922 م، باعتباره عطلة دينية رسمية.

وكما كانت رسالة ابن فضلان ورحلته أول أثر عربي مكتوب عن روسيا، كانت رحلة الراهب الروسي دانييل وكتابه "حياة وسفر الراهب دانييل من الأراضي الروسية" (1112 م) أول أثر روسي مدون عن مصر والشام. فيه

دون الرحالة ملاحظاته على عادات المصريين وأخلاقهم والطبيعة الفريدة في مصر. استوقفته طويلا التماسيح في النيل، ولم يكن قد رأى قبل ذلك تمساحا، فوصفها مدهوشا بقوله "الحيوان المائي المسمى تمساح رأسه كرأس الضفدعة، عيناه بشريتان، له أربع قوائم كل واحدة تزيد عن الشبر بقليل"!

أواخر القرن العاشر اعتنق الأمير فلاديمير عاهل إمارة كييف الديانة المسيحية عام 988 م ، فأخذ الحجاج الروس يتدفقون لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين مما ضاعف من اهتمام الروس بالمنطقة. وسجلت الملاحم الشعرية الروسية القديمة أخبار أولئك الحجاج الذين كانوا يسافرون في فرق تتألف الواحدة من أربعين فردا. كانت أسفارهم ضربا من المغامرات، إذ كانوا يقطعون المسافات الشاسعة على ظهور الدواب أو بالسفن الشرعية أوبالقوارب، ومشيا على الأقدام شهورا في بلاد لا يعرفون لغة أهاليها ولا طباعهم. في تلك الملاحم يرد ذكر النحاس والذهب والدنانير العربية. وإذا كانت الإشارات المبكرة المكتوبة عن روسيا قليلة فإن ذلك لا يعني أن العرب عرفوا عنها القليل حينذاك، لكن ما تبقى مكتوبا قليل. ففي عام 977 م ينوه الرحالة والمؤرخ والجغرافي محمد أبو القاسم بن حوقل في كتابه "صورة الأرض" بمخاطر الوصول إلى بلاد الروس محذرا من أنهم لا يتهاونون مع الغرباء. في أواخر ذلك القرن يسجل العلامة محمد أحمد المقدسي في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" أن العرب كانوا يجلبون الكثير من السلع من جنوب روسيا ومنها الجلود والفراء والقلانس والسيوف. أيضا سنجد الكثير من أخبار الروس لدى مؤرخين مثل ابن أثير، والطبري في "أخبار الملوك". ويعود الفضل في تعريف الأوساط الروسية بكتاب الطبري "أخبار الملوك" إلى البارون فيكتور رومانوفيتش روزين (1849 – 1908) أحد رواد الاستشراق الأوائل.

في العصور الوسطى وما قبلها كانت الرحلات والاحتكاك المباشر طريقة التواصل الوحيدة المتاحة للإنسانية لتتعرف إلى بعضها البعض وترى نفسها في الآخرين. كان أولئك الرحالة الأوائل مغامرين يتعرضون لشتى أنواع المخاطر بما في ذلك سلب ونهب سفنهم كما حدث في القرن 15 حين هاجم القراصنة سفينة الرحالة التاجر الروسي أفانسي نيكيتين خلال رحلته إلى مضيق هرمز ومنه للهند فالخليج العربي. نجا نيكيتين من الهجوم وعاد إلى روسيا ليسجل رحلته في كتابه "رحلة إلى ما وراء البحار الثلاثة" الذي يندرج فيما يعرف بالأدب الجغرافي المشتمل على رسم الخرائط ووصف طباع وعادات السكان والتعريف بالمكان وهو ما قدمه لنا ابن فضلان، والراهب دانييل. في أواسط القرن 15 قام التاجر فاسيلي من كييف والكاهن فرسنوفي من سمولينسك برحلة إلى القاهرة وكتب الأول يصف القاهرة حينذاك قائلا: "إن مدينة القاهرة كبيرة جداً وفيها 14 ألف شارع وفي كل شارع بوابتان وحارسان يشعلان الفوانيس وفي كل شارع سوق كبيرة". تلك الصور كانت من أولى الصور التي شقت طريقها إلى الوعي الروسي.

لكن انتشار الثقافة العربية في روسيا – والإسلامية أساسا - يعود إلى القرن السابع م. لهذا لم يكن مستغربا أن تصدر ترجمة كاملة للقرآن الكريم إلى الروسية عام 1716، وكانت الأولى. فيما بعد ستصبح تلك

الثقافة مصدر إلهام لعظماء الكتاب الروس، ولأمير الشعراء ألكسندر بوشكين الذي كتب عام 1824 قصيدة مطولة من تسعة مقاطع بعنوان "قبسات من القرآن"، وكتب "ليال مصرية" 1835، وأشار إلى تأثير الثقافة العربية قائلا: "العرب هم الذين ألهموا ملاحم العصور الوسطى تلك النشوة الروحية، والرقة، والحب". وفيما بعد يكتب ليرمنتوف قصيدته "غصن من فلسطين"، ولا ينقطع ذلك التأثير.

في مطلع القرن 18 كان العالم قد خلع عن كتفيه عباءة القرون الوسطى بتبدل وسائل الاتصال واتساعها. وخطت روسيا خطوة على ذلك الدرب مع النهضة التي قام بها بطرس الأكبر وفتحه الطرق البحرية أمام بلاده عام 1721. ساعد ذلك على تطوير علاقات الروس بالشعوب الأخرى. في نوفمبر 1784 تم تعيين كوندراتي فون طونوس أول قنصل روسي في الاسكندرية عهد على بك الكبير. نهضة كتلك بدأتها مصر بوصول محمد على باشا إلى الحكم عام 1805، والإصلاحات الكبرى التي قام بها. وعندما أخذ محمد علي في توسيع دائرة حدوده قام بغزو السودان عام 1920، واجتذبه إلى ذلك – ضمن اعتبارات أخرى- ذهب فازوغلي بجنوب سنار. هناك عثرت القوات المصرية على رواسب تحتوي على الذهب! وكان الذهب حلم ذلك القرن، لكن الباشا لم يجد طريقة لاستخلاصه من الرمال. إلا أن الذهب ظل يخايله طويلا. بعدها بسنوات قام أ. س. نوروف برحلة إلى مصر والنوبة، والتقي خلال رحلته بمحمد علي باشا ووصفه قائلا:

"اجتذب انتباهي بقوة الرأس الضخم الذي استقر فوق كتفي ذلك الإنسان الشهير وهدوء ملامحه التي نمت عن التواضع. غير أن ابتسامته وعينيه الرماديتين كانتا تومضان تحت حاجبيه الكثيفين وتكشفان عن تحفظ وصلابة وعقل وضاء". وعاد نوروف إلى روسيا ونشر كتابه "رحلاتي بمصر والنوبة 1834-1835". صورة الذهب المرمي في الرمال بدون أن يتمكن أحد من استخلاصه لم تفارق خيال الباشا. لهذا عندما قرر الشيخ عياد الطنطاوي السفر إلى روسيا سنة 1840 لتدريس اللغة العربية هناك، استدعاه محمد علي وأوصاه ألا يعلم الآخرين اللغة العربية فقط بل وأن يتعلم هو نفسه اللغة الروسية ووعده بالرعاية والاهتمام السامي. وكان الشيخ طنطاوي قبل سفره زميلا وصديقا لرفاعة رافع الطهطاوي رائد النهضة الثقافية المصرية الحديثة، رغم أن رفاعة كان أكبر من طنطاوي بعشر سنوات.

كانت شهرة الطنطاوي في القاهرة بصفته معلما للغة العربية كبيرة داخل الجالية الأوروبية. وتصادف أن كان من بين تلاميذه سياسيان روسيان هما موخين ورودلف فرين. يذكر الطنطاوي في تاريخ حياته أن صداقته بالروسيين تلك كانت "أول دافع لسفره إلى روسيا". استغرقت المكاتبات الرسمية الخاصة بسفر طنطاوي للعمل في مدرسة بطرسبورج الإمبراطورية العليا وقتا طويلا إلى أن رحل عام 1840، وأقام في روسيا واستقر في بطرسبورج حيث ظل خمس عشرة سنة متصلة يقوم بتدريس اللغة والأدب العربي. عام 1847 طنطاوي ترقى فأصبح أستاذا في الجامعة. سنة 1852 أهدى إليه ولي عهد القيصر خاتما مرصعا بالجواهر تقديرا لجهوده. وقد بقيت من حياة الطنطاوي أبحاثه باللغة الروسية وجهده في نشر الثقافة العربية، كما بقيت منه بعض قصائد منها واحدة يعرب فيها

عن شكره للقيصر نيقولاي وزوجته الكساندرا منها قصيدة يقول في مطلعها:

- الله يحفظ قيصرا والقيصرة
ويُديم عز نيقوله واسكندره !

وانقطعت صلة الطنطاوي بمصر فلم يزرها إلا مرة واحدة عام 1844. ترك الطنطاوي لنا كتابين هما "وصف بلاد روسيا" و"تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا"، سجل لنا فيهما رحلته ومنها ما حدث له بعد أن رست به الباخرة في ميناء أوديسا حيث قضى وقتا شاهد خلاله الأوبرا الإيطالية مرتين. وكتب يقول إنه لم يكن هناك في المسرح من يضع عمامة على رأسه سواه هو والممثلين على المنصة!

ويكتب المستشرق الكبير كراتشكوفسكي في كتابه "حياة الشيخ الطنطاوي" أن "سفرالشيخ الطنطاوي إلى روسيا كان حدثا كبيرا ليس في حياته فحسب بل وفي الاستشراق الروسي أيضا"، فقد تلقى الروس أصول اللغة العربية في عقر دارهم على يدي الطنطاوي الذي ترك أيضا كتابا فى النحو العربي باللغة الروسية، فساعد بكل ذلك في تطوير الاستشراق الروسي.

في يناير 1861 أقعد المرض الشيخ الطنطاوي عن العمل والتدريس وتوفي في العام نفسه فدفن في مقابر التتار المسلمين وظل النصب التذكاري على قبره يحفظ بعضا من سيرة حياته باللغتين الروسية وبالعربية: "هنا مرقد الشيخ العالم محمد عياد الطنطاوي مدرس اللغة العربية أستاذ جامعة بطرسبورج المحروسة. توفي في 27 أكتوبر سنة 1861 عن خمسين عاما". هكذا تركت مصر بعيدا جدا في الصقيع الروسي فلذة دافئة من روحها كانت تنشر بها اللغة والأدب.

بفضل ابن فضلان، ونوروف، وكوفاليفسكي، والشيخ الطنطاوي، وغيرهم من التجار والعلماء والرحالة الجسورين كانت البشرية تشق طريقها إلى بعضها البعض. وتتعرف على نفسها. ويؤكد المستشرق الكبير كراتشكوفسكي أنه بفضل التجار العرب والحجاج الروس دخلت إلى اللغة الروسية كلمات عربية كثيرة مثل صندوق، إمام، ياقوت، وغيرها، كما يذكر أن تسمية أجمل شوارع موسكو باسم "أرباط" يعود إلى أن ذلك الشارع كان "مربطا" لخيول التجار العرب، ومن هنا جاء اسمه "أرباط"!

قبل عامين من سفر الطنطاوي إلى روسيا، تحديدا عام 1838، حاول محمد علي باشا أن يعرف إن كان العلوم لدى روسيا قد توصلت لطريقة لاستخلاص الذهب! فاستدعى إلى قصره المقدم الروسي المهندس إيجور كوفاليفسكي وأهداه علبة نشوق ذهبية بأمل أن يعرف منه شيئا. وأكد له كوفاليفسكي أن علم التعدين في روسيا قادر على وضع الذهب بين يدي الباشا! وقرر محمد علي أن يرسل مبعوثين مصريين اثنين لدراسة علم التعدين في روسيا وهما: على محمد وإيليا داشوري اللذان كانا يتقنان اللغة الفرنسية والألمانية. وسافر الاثنان كأول بعثة دراسية مصرية إلى روسيا في أكتوبر 1845، وأقاما وراء جبال الأورال في الصقيع الروسي حيث تنخفض الحرارة إلى أكثر من أربعين درجة تحت الصفر! هناك ظل المصريان يتعلمان بصبر ودأب حتى مايو 1846، وأثارا خلال ذلك دهشة الروس وتعجبهم بالبشرة السمراء والملامح الإفريقية والقدرة على تحمل الصقيع!

لكن أحدا منهما لم يسجل رحلته لنقرأ فيها تفاصيل ما جرى. بينما سجل إيجور كوفاليفسكي المهندس الذي درب الاثنين رحلته فيما بعد حين قاد أول بعثة تعدين روسية تصل إلى الاسكندرية في ديسمبر 1847، وهي البعثة التي انطلقت بعد ذلك في يناير 1848 بالمراكب والجمال إلى أعالي النيل وراء الذهب. وضمت البعثة عالم نباتات وطبيبا ورساما معماريا وأسطى تعدين وغاسل رمال وعددا من الضباط المصريين علاوة على المهندسين الشابين: إيليا داشوري وعلى محمد!

العلاقات الدبلوماسية التي أقيمت بين مصر وروسيا في 1874 عهد على بك الكبير لم تنقطع بين البلدين إلا خلال حرب القرم التركية الروسية (1853-1856)، وفيها وقفت مصر مع الأتراك بحكم انضوائها تحت الخلافة العثمانية، وبعثت بفيلق مؤلف من خمسة عشر ألف جندي وضابط مصري للدفاع عن ميناء "يفتابوريا". مرة أخرى شاركت مصر في حرب البلقان إلى جانب تركيا 1877- 1878 بفيلق عسكري مماثل. العجيب في الأمر أن الجنود المصريين الذين وقعوا في الأسر لدى الروس عادوا بعد ذلك يحكون عن الأماكن الغريبة التي شاهدوها في روسيا الشاسعة وعن طباع الروس الذين عاملوهم برفق. ويرصد المستشرق الروسي أ. ف. يليسييف في كتابه "حول العالم" أثر تلك الحكايات قائلا إنه "فيما بعد حينما قصفت القوات الانجليزية مدينة الإسكندرية في 1882 هاج الناس في الشوارع وصاروا يضربون كل أوروبي يصادفونه، حينذاك كانت ثمة عبارة واحدة فقط تكفي لانقاذ الأوروربي وهي "أنا موسكوفي" أي أنا من موسكو!

أواخر القرن 19 انتعشت العلاقات بين البلدين بعد تشغيل قناة السويس في 1869 وإنشاء أول خط ملاحي مباشر بين الإسكندرية وأوديسا. ثم توقفت العلاقات مدة طويلة بعد قيام الثورة الاشتراكية في روسيا 1917، إلى أن عادت من جديد في 26 أغسطس 1943 عندما وجدت مصر نفسها في مواجهة الألمان مع بريطانيا والحلفاء ومن ضمنهم روسيا.

في بداية القرن العشرين يتبادل الروائي الروسي العالمي ليف تولستوي والإمام محمد عبده الرسائل تاركين لنا صفحة خاصة في تاريخ ثقافة التسامح والتفاعل. ذلك أن تولستوي مؤلف الحرب والسلام، وآنا كارنينا، وغيرها، قام باختيار ما أعجبه من أحاديث النبي (صلعم) وترجمه إلى الروسية ونشره عام 1904. وحينذاك كتب له الإمام محمد عبده رسالة بالفرنسية يشكره فيها قائلا: "أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوي.. كان وجودك توبيخا من الله للأغنياء وكان مددا من عنايته للضعفاء الفقراء". ويرد تولستوي على الرسالة بقوله "صديقي العزيز.. تلقيت رسالتكم الطيبة وأسارع بالرد عليها لكي أؤكد لكم أنها أثارت في نفسي ارتياحا شديدا كونها جعلتني أتعرف إلى شخص مثقف رغم أنه يعتنق دينا آخر غير الذي نشأت أنا وتربيت عليه، لكنه يدين معي بإيمان واحد، لأن المعتقدات مختلفة وكثيرة لكن الإيمان بالحقيقة واحد.. أظن أنني لم أخطيء إذ افترضت حسب رسالتكم أن ما أؤمن به هو ذاته ما تؤمنون به أنتم أيضا، أي الاعتراف بالرب، وسنته، وبأن تفعل لغيرك ما تحب أن يفعله لك. وأظن أنه كلما ازدادت العقائد بساطة ونقاء فإنها تصبح أقرب إلى بلوغ الهدف الأسمى

للبشرية أي التوحد العام. تفضلوا حضرة المفتى العزيز محمد عبده بقبول خالص مشاعر صديقكم ليف تولستوي".

عام 1913 يقوم رحالة جديد، في ظروف جديدة، برحلة إلى روسيا. إنه المستشار محمود رشاد قاضي محكمة مصر، ويسجل رحلته في كتابه "سياحة في الروسيا"، وفيه يستعرض عادات الروس وتقاليدهم وتاريخ نشأة الدولة وعملتها وشعرائها ومساجدها ودستورها وكنائسها. ومن ملاحظات محمود رشاد الطريفة قوله "ما اجتمعت بيهودي إلا ورأيته ناقما على الروس"! وهي إشارة مبكرة للصراع الروسي اليهودي الذي اتخذ في بعض الأحيان أشكالا عنيفة.

بعد ثورة يوليو 1952 شق التعارف المصري الروسي طريقا عريضا غير مسبوق. حدث ذلك بعد اقتحام إسرائيل لغزة في 28 فبراير 1955 وقتلها 39 مصريا، فأمسى ذلك العدوان بداية تحول كبير في العلاقات مع روسيا لأن مصر لم تستطع أن تحصل على سلاح من الغرب لصد الخطر الإسرائيلي، ووجدته لدى روسيا. يذكر هيكل في كتابه "حديث المبادرة" أن عبد الناصر فسر التحول نحو الروس بقوله: "في سنة 1955 كنت أريد التنمية ولم أكن أريد السلاح. لكن التوسع الإسرائيلي فرض عليَّ أن أعيد النظر في موقفي وأن أحصل على سلاح أحمي به عملية التنمية وحدود الوطن". في ذلك العام ظهر كتاب "شهر في روسيا" لأحمد بهاء الدين باهداء إلى " نورية إسماعيلوفا" الصحفية الأوزبيكية الشابة بعد رحلة قام بها الكاتب إلى هناك في سبتمبر. وخلال العدوان الثلاثي عام 1956 لم تكتف روسيا بإنذار بولجانين الشهير الذي وجهه لبريطانيا وفرنسا متسائلا "ماذا لو أن دولة أقوى منكما قامت بقصف لندن باريس؟". بل ترافق الإنذار بوصول وحدات عسكرية روسية إلى الإسكندرية لكن في الزي الرسمي للجيش البولندي!

في سبتمبر 1959 تمت صفقة الأسلحة الروسية التي سميت بصفقة الأسلحة التشيكية تجنبا لاستفزاز الغرب. وتلتها اتفاقيات أخرى عام 1963. عندما فقدت مصر في نكسة 67 ثلثي طائراتها المقاتلة وثمانمائة دبابة من أصل ألف أقام الروس جسرا جويا عسكريا مفتوحا مع مصر، ودعموا الجيش المصري بورش الكوادر والإصلاحات والأسلحة. في 22 يناير 1970 قام عبد الناصر بزيارة سرية إلى موسكو. كان مريضا ومنهكا ومعذبا بالرغبة في تحرير بلاده، وطلب من السوفيت نقل صواريخ سام -3 إلى مصر مع خبراء لتدريب المصريين عليها. أدى ذلك الطلب لنشوب نقاش حاد بين وزير الدفاع جريتشكو وألكسي كوسيجين رئيس الوزراء إلى درجة أن ليونيد بريجنيف القائد احتد عليهما قائلاً: "كفى نقاشاً! علينا أن نتخذ قراراً حاسماً". كان القرار إيجابيا. تم الاتفاق على إرسال خمسة عشر ألف ضابط وجندي سوفيتي إلى مصر ومعدات عسكرية وشبكة دفاع جوي. وبدأت العملية التي أطلق عليها الروس اسم سري هو "القوقاز". بعدها كفت طائرات الفانتوم الإسرائيلية الأمريكية عن اقتحام العمق المصري وضرب أهداف بالداخل كما فعلت فى مدرسة بحر البقر ومصنع أبى زعبل.

وكان قد استشهد في حرب الاستنزاف مع المصريين أربعون ضابطاً وجندياً سوفيتياً. كانت الطائرات تنقل جثثهم إلى ذويهم بصمت بدون الإعلان عن مصرعهم. واستشهد بعضهم داخل فرقة سلاح الصواريخ،

واستشهد في دهشور في الفرقة الميكانيكية السادسة ثلاثة مستشارين روس ومترجم عندما رفضوا الانصياع لتحذيرات صفارات الإنذار وواصلوا مهامهم. استشهد أحدهم وهو يرفع ذراعه اليمنى مصدراً أوامره بالهجوم على الطائرات الإسرائيلية. فيما بعد تعاون ثلاثة من الضباط لإعادة ذراعه إلى مكانها ليضعوه داخل النعش. لكن أحدا لم يستطع في خيالي أن يثني هذه الذراع وظلت مرفوعة تشير إلى الأعداء.

* * *

العصفور الذى حمى عبد الناصر

رحل عبد الناصر عن عالمنا منذ ثلاث وأربعين سنة. لكن ذكراه لا تفارق قلب مصر، ولا يني صوته القوي الشجاع يتردد في أجوائها. ولقد شقت العلاقة بين مصر وروسيا طريقا عريضا غير مسبوق سنوات الثورة التي عادت الاستعمار وأشاعت قيم الاستقلال الاقتصادي والسياسي والتحرر الوطني. تفوح ذكرى تلك القيم في شارع وسط موسكو أطلق عليه الروس اسم جمال عبد الناصر.

ومع أن تحولات الأعوام العشرين الأخيرة في روسيا قد غيرت حتى أسماء الشوارع التي أطلق عليها فيما مضى أسماء قادة الثورة، إلا أن اليد التي عصفت لم تقترب – لسبب أو لآخر – من شارع عبد الناصر.

وقد قدر الروس جمال عبد الناصر تقديرا خاصا، وقدموا لمصر خلال عشرة أعوام من علاقتهم بها أكثر مما أعطوه للصين على مدى ربع القرن. وكانت المرة الوحيدة في تاريخ الاتحاد السوفيتي التي اجتمع فيها المكتب السياسي خلال أربع وعشرين ساعة عندما قام عبد الناصر بزيارته السرية إلى موسكو في 22 يناير 1970، عندما طلب نقل صواريخ سام – 3 مع خبراء لتدريب المصريين عليها. وكان معنى الموافقة على طلبه أن السوفيت يتدخلون بأنفسهم وبشكل عسكري مباشر في الصراع في الشرق الأوسط بكل ما يعقب ذلك من تبعات دولية.

كان لشخصية جمال عبد الناصر أثرها في اتخاذ تلك القرارات الاستثنائية، علاوة على الشعور بأنه زعيم ذو شعبية جارفة، وبأن الثورة على

حد قول المؤرخ الروسي كوفتونوفيتش: "ليست إحدى الهزات الاجتماعية الضخمة، بل إحدى أهم أحداث القرن العشرين، وإحدى أهم حلقات الثورة الوطنية المصرية". وقد انتزع عبد الناصر من الروس هذا الاحترام الكبير بالرغم من خلافاته الفكرية الواضحة معهم. وفي حينه – عندما أثار السادات الأتربة لتلطيخ سمعة عبد الناصر - أدلى رجال المخابرات السوفيتية بتصريح واضح أكدوا فيه أن عبد الناصر لم يكن له أي حساب سري في أي من بنوك العالم وأن نزاهته فوق كل الشبهات. ومؤخرا سجل رجل المخابرات المعروف فاديم كيربتشنكو ذكرياته عن مصر وعن عبد الناصر والسادات في كتابه" المخابرات. وجوه وشخصيات" وفيه يقول الكاتب – وأنا أنقل كلماته بالنص من الأصل الروسي: ـ

"لقد كتبوا الكثير عن عبد الناصر، وسوف يكتبون الكثير عنه. لقد برز عبد الناصر كزعيم سياسي وثوري بالضبط في الوقت الذي كانت فيه مصر والعالم العربي وإفريقيا بحاجة إلى مثل هذه الشخصية القادرة على قيادة النضال ضد الاستعمار والإقطاع والنظم الملكية المتعفنة. كان عبد الناصر الرجل المنشود في اللحظة المناسبة. بفضله تطورت العلاقات المصرية السوفيتية على صعيدي الصداقة والمنفعة المتبادلة، ثم تطورت بعد ذلك علاقات الاتحاد السوفيتي بالعالم العربي كله. وهنا لابد من الإشارة إلى أن العلاقات السوفيتية – العربية كانت لسنوات طويلة عنصرا هاما في مجمل السياسة الدولية .

والحق أن شخصية عبد الناصر بحد ذاتها كانت تثير اهتمامي الكبير: وحاولت دائما أن أعرف عنه أقصى ما أستطيع. ولعل عبد الناصر كان أحد آخر الثوار الرومانسيين في السياسة، فقد كان يقدر دائما محدثيه الجديرين بالاحترام، ويلتزم بكلمته، ويؤمن بالمستقبل السعيد لشعبه. وخلال سنوات عملي الطويلة في مصر – عشرة أعوام على فترتين – كان عليَّ أن أوقع الكثير من البرقيات والتقارير المرسلة إلى موسكو، وكان جمال عبد الناصر موضوعها الرئيسي، وحتى عندما غادر عبد الناصر عالمنا وأصبح السادات رئيسا لمصر كنت وأنا أقيم سياسة السادات أعود إلى شخصية عبد الناصر وأقارن بشكل دائم بين هاتين الشخصيتين.

وقد لا يكون من المفيد هنا في مجال ذكرياتي الشخصية أن أتعمق في مسألة من نوع الأهمية السياسية لعبد الناصر، لأنني لن أقدم أية مفاجأة جديدة. كل ما في الأمر أنني أريد أن أكرس عدة صفحات لملاحظاتي الخاصة التي ظلت عالقة في ذاكرتي لكي يستطيع القارئ أن يتخيل عبد الناصر ليس فقط كقائد وزعيم، لكن كإنسان من لحم ودم.

كنا- لسنوات طويلة خلال عملنا الحزبي والرسمي – حين نريد التأكيد على الأهمية الخاصة لشخص ما نكتب: "إن المصالح الاجتماعية لديه تعلو على المصالح الذاتية". ولعل هذه العبارة البيروقراطية التي تشبه الأكليشيه هي أكثر العبارات التي تنطبق على عبد الناصر. فقد وعي مبكرا أهميته كقائد سياسي، وأخضع نفسه بالكامل لخدمة مصر وحركة التحرر الوطني، وتمتع باحترام هائل في العالم العربي بأكمله، وأحبه العرب من صميم قلوبهم وافتخروا به، لأنه كان يجسد بالنسبة لهم الأمل في مستقبل أفضل. كانت صورة ناصر معلقة في كل أقطار العالم العربي داخل البيوت وعلى جدران المقاهي والأكشاك في الشوارع، اللهم إلا إذا كانت صورة ناصر تهدد

من يعلقها بالملاحقة والاعتقال. وقد أدهشني شخصيا ذلك الكم الهائل من صور عبد الناصر في المملكة الليبية حينذاك، وأيضا مشاعر التقدير والإعجاب به التي كان أصحابها يعربون عنها بقوة. كنت قد قضيت عدة أيام في ليبيا في نوفمبر عام 1963، ووجدت أن كل كشك في سوق طرابلس يضع صورة كبيرة ملونة لعبد الناصر، وعلى مقربة من صورة ناصر صورة صغيرة غير ملونة للملك إدريس السنوسي ولابد أن الملك كان على علم بذلك بطبيعة الحال.

لم يكن عبد الناصر يعبأ على الإطلاق براحته الشخصية أو باقتناء الأشياء. وعلى وجه الخصوص لم يكن يهتم باكتناز المدخرات، وعاش فقط على انشغال وحيد بالقضايا الفكرية والسياسية. هذه الصفات كانت واضحة في منزل عبد الناصر. فقد قضى حياته بالمنطقة العسكرية في العباسية في نفس المنزل الذي عاش فيه حين كان مجرد بكباشي. فيما بعد لم يدخل سوى بعض الإصلاحات البسيطة على البيت نفسه.

لم ينساق عبد الناصر لإغراء ترقية نفسه كرجل عسكري وهو الأمر الذي فعله تقريبا كافة الحكام من القادة العسكريين. لنأخذ على سبيل المثال الرئيس أنور السادات – فقد اخترع لنفسه مختلف الشرائط التي تميزه عن العسكريين، واخترع لنفسه زيا خاصا به كقائد عام أعلى، بل ومنح نفسه لقب "الحاكم العسكري الأعلى". كان السادات يغطى - بمختلف الشارات الملونة - قبعته وكتفيه وصدره وعروات أزرار الجاكتات والأوشحة الممتدة من كتفيه حتى أن عيون الناظرين إليه كانت تتموج من الوميض الذي ترسله كل تلك الزينة. بالمناسبة، فإن هذا الزي الرسمي للسادات هو الذي أصبح فيما بعد هدفا مناسبا جدا للرصاص الذي انطلق وصرعه في 6 أكتوبر 1981 أثناء الاستعراض العسكري في الذكرى الثامنة لحرب أكتوبر .

وقد شاعت في وسائل الإعلام الغربية قصص لم تحدث أبدا عن حياة عبد الناصر الشخصية. ظهرت مقالات دورية عن تحويل عبد الناصر أموال (يفترض طبعا أن ذلك تم بطرق غير شرعية) إلى حسابات سرية في بنوك سويسرية. في الواقع، فإن طريقة حياة عبد الناصر المتواضعة كانت تنفي تلك الإدعاءات حتى أن مثل تلك الأنباء والإشاعات كانت تتبخر واحدة بعد الأخرى من تلقاء نفسها بحيث لم يبق منها شيء في نهاية المطاف. بعد وفاة عبد الناصر اتضح أن حسابه الشخصي لم يكن يحتوى إلا على ستمائة جنيه مصري فقط لا غير .

خلال زيارة عبد الناصر الأولى للاتحاد السوفيتي في أبريل – مايو عام 1958 وجه نيكيتا خروتشوف قائد الاتحاد السوفيتي حينذاك سؤالا إلى عبد الناصر: "كيف تقضي أوقات فراغك؟". أجابه عبد الناصر: "في ساعات الفراغ القليلة أمارس التصوير السينمائي". ثم دار نقاش حول هذا الموضوع وقال خروتشوف خلال ذلك إن أفلام التصوير السينمائية الملونة تبدو أجمل بكثير من أفلام "الأبيض والأسود". حينئذ قال عبد الناصر: "إن أفلام التصوير الملونة غالية الثمن"! المهم أن عبد الناصر نطق بتلك العبارة بشكل طبيعي تماما وبدون أي افتعال أو تصنع. قالها ببساطة كمجرد إقرار بواقع نظام حياته اليومي.

جدير بالذكر - عند الحديث عن تواضع عبد الناصر الأصيل – ذلك الجانب الذي يخص علاقته بأمنه الشخصي. على سبيل المثال فقد كانت تحيط به

حلقة كبيرة من الحراس عندما كان يقطع شوارع القاهرة بسيارته، ولم يكن الأمر يتجاوز تلك الحراسة البسيطة. لم تكن هناك أية إجراءات أخرى لحماية عبد الناصر. الغريب في الأمر أن عبد الناصر نفسه لم يكن من النوع الذي يستشعر المخاوف والشكوك المبالغ فيها. ويمكنني شخصيا أن أشهد بذلك على أساس حقائق محددة. على سبيل المثال فقد طلب مني عام 1956 أحد المحيطين بعبد الناصر إرسال أخصائيين إلى القاهرة للتشاور معهم لتنظيم حماية أكثر أمنا للزعيم المصري. وافقنا على ذلك الطلب على الفور. وسرعان ما وصل إلى القاهرة مسئولان كبيران من المخابرات السوفيتية "ك . جي . بي". ودعانا عبد الناصر في بيته على الغداء. وفي جو منزلي دافئ للغاية أعرب عبد الناصر عن بعض أمنياته منها أن تستفيد الأجهزة المصرية من خبرتنا لتنظيم حراسة الرئيس.

كانت دعوة المسئولين الكبيرين من المخابرات السوفيتية إلى القاهرة مرتبطة بالمعلومات التي جمعتها الأجهزة المصرية – عشية العدوان الثلاثي - عن خطط متآمرين من الداخل والخارج لاغتيال عبد الناصر.

أجرينا مناقشات عديدة مع المختصين بحماية عبد الناصر خلال وجوده في المظاهرات والاجتماعات وخلال حركة سيارته في الشوارع، وخلال قيامه برحلات إلى خارج مصر، وأثناء تواجده في بيته، وتأكدنا بعد ذلك من أنه – خلافا لحلقة الحراس- لا توجد أية إجراءات أمنية من أي نوع لحماية الرئيس!

واتضح أن الطاهي الذي يعد الطعام لعبد الناصر كان يشترى له الخبز من محل مواجه لبيت الرئيس! أما اللحوم والخضروات فكان يتجه لشرائها من أقرب سوق! لم تكن هناك أيضا أية رقابة طبية على المواد الغذائية التي تدخل بيت عبد الناصر، كما أن ذلك الموضوع لم يثر أصلا قلق أو اهتمام أحد! لم يكن هناك أي نظام إنذار خاص بمقر الزعيم، أو خاص ببيته. ناقشنا احتمال قيام البعض بنقل مواد مشعة أوسامة إلى مقر أو بيت الرئيس أو قاعة الاجتماعات.

وأراد المسئولون المصريون أن نمدهم بأجهزة خاصة لاكتشاف المواد المشعة أو السامة، ولكن الدهشة حطت عليهم حين نصحهم الجنرال الروسي بأن يضعوا عصفورا في قفص داخل الغرف والقاعات! وقال لهم: إذا مات العصفور – فإن ذلك يعني أن بقاء الإنسان داخل هذا المكان خطر. ولم يستطع المصريون أن يثقوا في فاعلية هذه الوسيلة، ومن ثم ظلوا يلحون علينا: أليس ثمة وسائل أكثر عصرية من العصفور؟ وظل خبراؤنا يكررون لهم أن هناك أبحاثا تجري في ذلك المجال ولكن ليس هناك ما هو أكثر فاعلية من عصفور في قفص!

فيما بعد ظلت حكاية العصفور تتردد طويلا في مناقشاتنا مع زملائنا المصريين ..

فنقول لهم هذا جيد، وهذا أيضا حسن، لكن العصفور أفضل وسيلة حتى الآن!

كان عبد الناصر خطيبا مفوها لا يشق له غبار، وقد ألقى خطابات كثيرة في قاعات وأماكن ممتلئة بالجماهير، فكان الناس ينصتون إليه باهتمام غير طبيعي مسحورين به.. ولابد من ملاحظة أن عبد الناصر كان يتوجه بخطبه إلى الفئات المتعلمة والفئات غير المتعلمة، وكان يأخذ تلك الحقيقة بعين

الاعتبار. وكان يكرر خلال خطابه عدة مرات نفس الفكرة، أو حتى نفس العبارة، ولكن بأشكال مختلفة. وبهذه الطريقة تمكن من غرس أفكاره في وعي من يستمعون إليه من مختلف الفئات. وكانت ملابس عبد الناصر بسيطة دائما، ولم يكن من هواة الأشياء التي تستخدم كزينة أساسا مثل محابس أكمام القمصان، أو دبوس رباط العنق، ولكن البدل البسيطة التي كان يرتديها كانت تبدو رائعة على قامته المهيبة. وكان يحلق شعر رأسه قصيرا، وكان كل شئ فيه يشي بأنه رجل عسكري اعتاد إلى الأبد على عادات الجيش: الملابس المستقيمة، والجسم المفرود.

كان بوسع عبد الناصر نفسه أن يحدد بنظرة واحدة إلى شخص ما إن كان ذلك الشخص قد خدم في الجيش أم لا. كان ذلك بالنسبة لعبد الناصر أمرا هاما. وفي خلال زيارة ناصر الأولى لموسكو اقترب منه مع أحد المسئولين من المخابرات السوفيتية لنأخذ موافقته على موضوع، لكنه بدلا من الترحيب بنا صاح فينا ضاحكا: يا جماعة.. خطوتكم واستقامة أجسامكم عسكرية مائة بالمائة! كان ناصر يمزح معنا بالطبع فقد كان يعلم تمام العلم طبيعة عملنا.

من ملامح عبد الناصر الهامة أيضا أنه لم يقلد ولم يكن ليقلد أحدا أبدا. بالنسبة له لم تكن هناك ضرورة لتقليد الآخرين. فقد كان شخصا متحدا مع نفسه بالكامل، جديرا بأن يقلده الآخرون. هنا مرة أخرى تقفز إلى الذهن مقارنة هذا الزعيم مع أنور السادات. كان الأخير يؤدى طيلة الوقت دورا ما، وعاش دائما في شخصيات أخرى، وصور نفسه إما فيلسوفا، وإما "أبو العائلة"، وإما سياسيا داهية، وإما عسكريا استراتيجيا لا يبارى. ويعرف الكثيرون في مصر أن السادات كان في شبابه يهوى تقليد هتلر! والسبب في ذلك أن الألمان حينذاك – سنوات الحرب العالمية الثانية – أحرزوا في البداية عدة انتصارات على الانجليز في إفريقيا، ولهذا انتظر عدد من السياسيين والعسكريين المصريين دخول رومل إلى مصر ليحررها من الاحتلال الانجليزي. وظل اهتمام السادات لسنوات طويلة مركزا على شخصيات مثل تشرشل وستالين. حاول السادات أيضا أن يتقمص تلك الشخصيات بل ودرس سيرة حياتها الذاتية وخاصة الطريقة التي تصرف بها هذان القائدان. كانت تلاحق السادات رغبة لا تهدأ في أن يلقي خطابا على الشعب على أن يكون بالحتم خطابا تاريخيا لا يتكرر، بحيث يدخل ذلك الخطاب إلى الأبد في ذاكرة الأمة، وتكون له أهمية حاسمة في حياة البلاد السياسية. ولذلك كان السادات يهتم بخطاب ستالين الذي وجهه إلى الشعب في 3 يوليه 1941. ووفقا لرأي عدد من المؤرخين فإن خطاب ستالين ذلك أدى بدرج كبيرة لحشد الشعب السوفيتي للتصدي للغزاة الألمان. وكان السادات يتوق لأن يصبح صاحب خطاب تاريخي من هذا النوع، وهو الأمر الذي اعترف به السادات بلسانه للسيد فينوجرادوف سفيرنا في مصر حينذاك. ولكن من الأفضل أن نعود إلى جمال عبد الناصر..

وبالرغم من هيئة عبد الناصر المهيبة والقوة والثقة اللتين تشعان من جسمه وقامته العالية كان من الممكن – إذا طال الحديث معه – أن تلاحظ عليه حالة التوتر والعصبية والإرهاق المزمن المرتبط بقلة ساعات النوم على مدى سنوات طوال وبالعمل المتصل حتى الإنهاك التام. كانت يداه

حين يقوم بمباحثات معقدة ترتجفان على نحو عصبي أما أظافره فكانت مقروضة حتى اللحم الحي!

حينما كنت ألتقي بعبد الناصر بعد فترة طويلة من الانقطاع عن رؤيته كنت أشهد بوضوح كيف يأخذه الكبر والعجز بسرعة، وكيف تتزايد الشعيرات البيضاء في رأسه وفوديه. الأهم كان ذلك التغيير الذي يطرأ على نظرة عينيه. كانت عيناه تغدوان شيئا فشيئا أكثر حزنا. أما في السنوات الأخيرة فإن هاتين العينين كانتا تنطقان فقط بنظرة مريرة من الكآبة والشجن. ربما أحبطه الإخفاق، أو انصراف الأصدقاء المقربين عنه، أو الآثار القاتلة لهزيمة 67 .

في فترة عملي الثانية بمصر التي بدأت في 8 سبتمبر 1970 لم تتح لي الفرصة لألتقي بعبد الناصر حيا، فقد توفي في 28 سبتمبر من نفس السنة. وفي الأول من أكتوبر مضت جنازته التي تجمعت فيها مصر كلها تقريبا. قد يكون من المناسب هنا استرجاع صورة جنازة السادات التي مضى فيها خلف نعشه مجموعة من الحراس وعدد لا يتجاوز الخمسمائة فرد من المشيعين! وحتى هواة الفرجة من المصريين لم يمضوا خلف جنازة السادات!

حينما مضى موكب المشيعين لعبد الناصر من ميدان التحرير في اتجاه مصر الجديدة تدفق المصريون لتوديعه في طريقه الأخير، وسدوا كل متر من الشوارع بأجسادهم والشرفات وأسطح البيوت، بل وتسلق بعضهم أعمدة الكهرباء، وللقارئ أن يصدق أن البعض كان يجلس فوق سلوك الكهرباء مباشرة! ولا يعرف أحد حتى الآن بالدقة عدد المشيعين الذين ماتوا من شدة الضغط والازدحام وتحت الأقدام، ولكن من المؤكد أن عددهم كان كبيرا! وقد بدأ التزاحم والضغط الشعبي من هناك حيث اجتمع قادة مصر وضيوفها الأجانب الكبار لتشييع ناصر.

وكان الجو حارا وخانقا وباعثا على القلق في ذلك اليوم. كانت جموع الناس تتدافع نحو المكان الذي أسجي فيه جثمان ناصر في نعش مغطى بعلم مصر، وبين حين وآخر كان البعض يغشى عليه، في البداية تهاوى على صبري أقرب أنصار الزعيم الراحل، ثم قرر أنور السادات بدوره أن يغشى عليه لكي لا يجرؤ أحد على اتهامه بأنه عديم الإحساس !

تدافع أيضا من شدة الزحام رجال الحكم من النخبة المصرية والدبلوماسيين وأعضاء الوفود الأجنبية، وحينما تحرك النعش على عربة تجرها ستة خيول، اندفعت الجموع نحو العربة في بلبلة ولغط. وحوصر قسم من حراسة الكسي كوسيجين في إحدى مناطق المدينة فلم تستطع الحراسة أن تصل إلى رئيس الوزراء السوفيتي. وكان علينا نحن العاملين بالسفارة وبعض الحراس التابعين لنا أن نحيط كوسيجين بأجسادنا حماية له من طوفان البشر. فيما بعد لاح خطر أن تهرس الجموع رئيسة وزراء سيلون فأدخلناها إلى حلقتنا، ثم طار فوق رؤوس المشيعين تقريبا جسم هيلاسلاسي آخر إمبراطور لأثيوبيا دون أن يدري أحد كيف تم ذلك!

وقبل أن تبدأ عملية التدافع تلك كنا قد لحقنا بالاقتراب من نعش الزعيم الكبير لنودعه بعد أن أغلق إلى الأبد عينيه المرهقتين والحزينتين.

وسوف أورد قصة واحدة من بين قصص كثيرة راجت بعد موت ناصر لأنها ظلت عالقة في ذاكرتي حتى الآن: بعد شهر واحد من موت عبد

الناصر، قال علي صبري خلال حوار مع السفير السوفيتي: "كان بوسع عبد الناصر بحكم هيبته المطلقة أن يوحد الناس من مختلف المشارب، وأن يجعلهم يعملون معا، ويتحركون في اتجاه واحد، وقد مات عبد الناصر، وانهار كل شئ." ومع ذلك فإن الاهتمام بذلك الزعيم الكبير مازال حيا، لا ينطفئ، ولا يخمد".

عند هذا الحد تنتهي شهادة فاديم كيربتشنكو رجل المخابرات الروسية عن عبد الناصر الذي كان صورة من عصر تجولت فيه روح جيفارا تؤجج الثورة بين أحراش أمريكا اللاتينية، وفيه ألهب باتريس لومومبا مشاعر الحرية في نفوس شعبه، وكان عبد الناصر أحد ألمع فرسان ذلك الزمن.

رحل المغني، أما الأغنية فما زالت باقية.

* * *

صراع الألف عام!

أنهى المستشار محمود رشاد - قاضي محكمة مصر- رحلته التي قام بها إلى روسيا، وسجل تفاصيلها في كتابه "سياحة في الروسيا" عام 1913. من الملاحظات المهمة التي رصدها بعين مصري لبيب حالة العداء اليهودي للشعب الروسي وذلك في قوله "ما اجتمعت بيهودي إلا ورأيته ناقما على الروس"! تشير تلك الجملة السريعة إلى تاريخ من الصراع الروسي-اليهودي العنيف والمكشوف أحيانا والهاديء المستتر معظم الوقت. ومع أن روسيا تتشكل من مئة وستين قومية غير الروس تؤلف نحو 25 مليون نسمة إلا أن حالة الصراع والعداوة لم تنشب إلا مع اليهود حتى شكلت ملمحا هاما في التاريخ الروسي.

وقد تفجرت حالة العداوة هذه منذ بداية بناء الدولة الروسية واتخذت شكل هجمات على اليهود كما حدث عام 1069 م في إمارة كييف. عداوة

لم تنقطع واستمرت إلى يومنا – ألف عام- بأشكال وصور مختلفة، باعثها الرئيسي الشخصية اليهودية التي تشبثت أينما ذهبت بالجيتو المغلق، وعاشت على الربا، تقدم مصالحها الخاصة الضيقة على كل شيء، ورفضت التفاعل مع الآخرين، وسعت دوما لاستغلالهم وتحقيرهم، والإعلاء من ذاتها أكثر مما تستحق.

عام 1877 يكتب الروائي الروسي العالمي فيودور دوستويفسكي قائلا: "اسألوا السكان الأصليين في أطراف بلادنا ماذا يحرك اليهود اليوم وما الذي حركهم طيلة القرون الماضية؟ وسوف تجدون أن الرد بالإجماع هو: "حركهم ويحركهم عدم الرحمة ورغبتهم في امتصاص عرقنا ودمائنا".

في كتاب "ما الذي لا يعجبنا فيهم؟" – موسكو 1994 - للكاتب الروسي فاسيلي شولجين – عرضه د. نوفل نيوف- يقول الكاتب بالنص: "إن العداء لليهود قائم وينمو ويشمل دائرة واسعة من الشعب الروسي بمختلف مشاربه السياسية.. والسبب هو اشتغال اليهود بالربا والأعمال التجارية وتقديسهم للذهب والمال على حساب كل شيء وتحويلهم الروس إلى مزارعين أشبه بالعبيد، ولهاثهم للسيطرة على وسائل الإعلام ومراكز صنع القرار، لهذا فإن الأغاني الشعبية الروسية مفعمة بالشكوى المريرة من ظلم اليهود حتى أنها تصفهم بمصاصي الدماء". جدير بالذكر أيضا أن شخصية اليهودي الجشع النذل كانت من الشخصيات الرئيسية في مسرح العرائس الشعبي الروسي.

يشير فاسيلي شولجين كذلك إلى أن اليهود استفادوا دوما من بقائهم في روسيا وظل ولاؤهم لمكان آخر، وكان ذلك الولاء يتضح ما إن تعصف الأزمات أو الحروب بروسيا قائلا "وليس أبغض مما يتميز به اليهود من قدرة على اخفاء بحار من الدم بمحيط من أكاذيبهم". يرد شولجين على التساؤل الذي اتخذه عنوانا لكتابه "ما الذي لا يعجبنا فيهم؟" قائلا:"يسألوننا ما الذي لا يعجبكم فينا؟ وأجيب لا يعجبنا فيكم أنكم تنسبون لأنفسكم دورا أكبر من حجمكم، وأنكم تسعون دوما لاستغلال الجميع والهيمنة عليهم، وأنكم قمتم بأكثر المجازر جنونا ودموية، وأنكم في الوقت الذي تشكون فيه من المجازر فإن تلك المجازر في الواقع ليست سوى ألعاب أطفال مقارنة بما ترتكبونه ضد الشعب الروسي".

هي الصورة ذاتها التي تشكلت تاريخيا في وجدان شعوب أخرى ودفعت الكاتب العملاق ويليام شكسبير في مسرحيته "تاجر البندقية" لتجسيد اليهودي في شخصية "شيلوك" المرابي الجشع الذي يقرض الشاب أنطونيو ثلاثة آلاف جنيه بشرط توقيع عقد يتيح للمرابي أن يقتطع رطلا من لحم أنطونيومن أي جزء يختاره من جسمه، إذا لم يسدد له أنطونيو المبلغ في الموعد المحدد. وبعد نحو مئتي وخمسين عاما مما كتبه شكسبير، يؤكد الروائي العظيم تشارلز ديكنز من جديد في روايته "أوليفر تويست" ملامح

شخصية اليهودي ذاتها، العجوز الشرير "فاجين"، قائد العصابة التي تستغل الأطفال في السرقة والإجرام.

هي أيضا الصورة التي تشكلت لدينا كما تُظهر ذلك مختلف الدراسات. في كتابه "صورة الإسرائيلي في مصر" (دار ميريت 2004) يذهب د.عبد الباسط عبد المعطي إلى أن الثقافة المصرية الشعبية تختزن صورة لليهودي على أنه ذلك: "القبيح، العدواني، الأناني، البخيل، الذي يشتغل في الربا والحرب.. المنفر. المراوغ. الماكر. غير مأمون الجانب". في كتاب آخر هو "الشخصية الإسرائيلية والروح العدوانية" (دار الهلال 2002) يقدم د. رشاد الشامي نموذجا واضحا لذلك التكوين مستشهدا بقصيدة شاؤول تشيرنحوفسكي التي يخاطب بها أخاه اليهودي قائلا:

"سيأتي اليوم الذي تغرس فيه حد سكينك في عنق أخيك. وستكون أنات موته مثل الموسيقا. وفي كل ليلة سنصعد من قبورنا لنرضع من أنهار الدم، قطرة فقطرة"! وإذا كان الشعراء اليهود ينادون بارتشاف دماء الآخرين فما الذي يمكن أن ينادي به يهودي ليس شاعرا؟.

وقد حفل الأدب الروسي بالتعبير عن حالة العداء تلك بدءا من جوجول في روايته "تاراس بولبا" التي ترسم شخصية يهودي صاحب حانة بصفته مرتزقا خائنا، ثم تورجنيف في قصته "اليهودي" التي يُعدم فيها بطلها اليهودي لأنه جاسوس، وحتى أنطون تشيخوف في قصته "كمان روتشيلد" التي لا يسمى بطلها يهوديا لكن يصف بدقة ناطقة شخصية اليهودي الذي - حتى وهو يدفن زوجته - يُقدر ثمن النعش ويسجله في دفتر حساباته!

جدير بالذكر أنه بعد قيام الثورة الاشتراكية 1917، خلال انعقاد مؤتمر الكومنترن الثاني في 28 يوليو 1920 رفض المؤتمر مشروع إقامة دولة يهودية في فلسطين، وأقر بإشراف فلاديمير لينين وثيقة جاء في البند الحادي عشر منها في القسم السادس ما نصه: "إن الدليل الواضح على خداع جماهير الأمة المضطهدة يتجلى في عملية الصهاينة بشأن فلسطين، وفي الصهيونية عموما التي تقدم السكان العرب الكادحين في فلسطين قربانا إلى الاستغلال البريطاني بحجة تأسيس دولة يهودية".

ومع أن أكثر من ثلاثين عاما قد انقضت على توقيع اتفاقيات السلام المصرية الإسرائيلية، إلا أن تلك العقود لم تفلح في تحسين صورة اليهودي على الصعيد الشعبي بل والرسمي. ففي سنوات "السلام" تلك شنت إسرائيل حروبا بمعدل حرب كل أربعة أعوام، ثلاث حروب ضد الفلسطينيين (قمع انتفاضة 1987 – وقمع انتفاضة عام 2000 – ومحرقة غزة في 2009) وحربين على لبنان (عام 1982 – وعام 2006)، وشاركت في ضرب العراق، وتقسيم السودان، وتهديد سوريا وإيران. وإذا كان "سلام" إسرائيل قد جلب علينا كل تلك الحروب، فما الذي قد تفعله بنا في الحروب؟

عام 1972 سافرت إلى روسيا، ولم تكن آثار حرب 67 قد توارت. وكان أحد أهم الآثار المترتبة على نكسة 67 اندفاع اليهود السوفيت للهجرة من

روسيا إلى إسرائيل بعد أن شجعهم انتصارها العسكري على الثقة في نجاح مشروعها الاستيطاني. وعمقت تلك الهجرة الشرخ في المجتمع الروسي بين اليهود والمواطنين الروس. وكنتَ أينما ذهبتَ – في الأسواق أو المحلات أو داخل المنازل- تلمس دهشة الروس البسطاء والمرارة التي على وجوههم وهم يتساءلون "عاش اليهود هنا، يتكلمون لغتنا ويأكلون ويشربون معنا، وما إن لاحت أمامهم فرصة للهجرة حتى تركونا. لم تكن روسيا وطنهم إذن كما كانوا يزعمون؟!".

قبل نكسة 1967 كانت إسرائيل قد نجحت في تصوير جوهرها العدواني بصفته صراعا بينها وبين العرب ليس إلا. وبرز ذلك الصراع في الخارج مسربلا بالمزاعم الدينية والأساطير والأكاذيب فصارت صورته وأسبابه مركبة لدي المواطن الأوروبي بما في ذلك الروسي. إلا أن نكسة 67 أظهرت للكثيرين أن إسرائيل ليست دولة لقومية يعاديها العرب، بل قاعدة عسكرية يحقق بها الاستعمار أهدافه في ضرب تطور شعوب المنطقة. وقد رفض الكثيرون خلال ذلك المطابقة بين "الصهيونية" و"الديانة اليهودية"، وظللنا نكرر أن الديانة شيء، والسياسة شيء آخر. وهذا صحيح، لكن من الصحيح أيضا أن المشروع الصهيوني الاستعماري قدم فرصة ذهبية للتكوين النفسي والثقافي لليهود لتجسيد قسوة اليهودي وجشعه ونهمه لاستغلال الآخرين. لقد وجد ذلك التكوين النفسي في الصهيونية التي تقتل الأطفال وتحرق الأشجار نفسه وطموحه، كما عثرت الصهيونية في اليهود على قوتها البشرية.

وقد أسقطت هزيمة 1967 الكثير من الأقنعة عن الصهيونية وعن اليهود وعن جوهر المشروع الاسرائيلي. وأخذ الشعب الروسي يعي شيئا فشيئا أن مشكلة إسرائيل ليست في الصراع العربي، بل في كونها قاعدة لخدمة المصالح الاستعمارية أينما كانت. وقد ظهر ذلك بوضوح للروس عام 2008 إبان الحرب الروسية – الجيورجية حين زودت تل أبيب الجانب الجيورجي في حربه ضد روسيا بمختلف الأسلحة وبطائرات التجسس ب 23، وأشرف مدربون عسكريون إسرائيليون على تدريب الجيش الجيورجي. وبذلك يتضح دور القاعدة العسكرية التي تقدم خدماتها أينما استلزم الأمر ذلك. لهذا لم يكن مستغربا أن يصرح إيهود أولمرت رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق بقوله "إسرائيل تضرب في أي مكان .. سواء أكان قريبا أم بعيدا. وما من مكان في العالم لا يمكن لإسرائيل أن تصل إليه"! بذلك تبين الروس

الحقيقة. فإذا كانت إسرائيل في عدوانها على العرب تتذرع بقصص صراعها مع العرب وفلسطين، فما الذي يدفعها للمشاركة في عمليات عسكرية أمريكية في أوسيتيا بجيورجيا سوى طبيعتها الداخلية كأداة للعدوان؟!.

وقد أخذ هذا الإدراك الروسي لطبيعة إسرائيل يتضح حتى وجه سبعون كاتبا روسيا شهيرا عام 1990 رسالة مفتوحة على صفحات "ليتراتورنايا جازيتا" إلى مجلس السوفيت وقع عليها أدباء كبار منهم ليونيد ليونوف، وفالنتين راسبوتين، وستانسيلاف كونيابيف وغيرهم. وعبرت الرسالة عن ذروة الغضب الروسي غير المحدود من الحملة اليهودية الصهيونية على الشعب الروسي في وسائل الإعلام، وعددت تسع صحف ومجلات يسيطر عليها يهود تطلق مختلف النعوت على الشعب الروسي بدءا من الفاشيين والعنصريين انتهاء ب "أبناء الكلاب"! وجاء في الرسالة أن وسائل الإعلام التي سيطر عليها يهود روسيا تحقر الشخصية الروسية وتصفها "بالعبودية والانحطاط" وتعتبر أن روسيا بتاريخها العريق ليست سوى"عبدة الألف عام"! وتضيف الرسالة الغاضبة أن وسائل الاعلام تلك ترفع الشعارات العنصرية القائلة بتفوق الجنس اليهودي، كما أنها تبارك نشاط منظمات إرهابية شاركت في جرائم بشعة مثل مذابح صبرا وشاتيلا التي اهتز لها الضمير العالمي. وتقول الرسالة "إنهم يزعمون أن الصهيونية مفترى عليها من الأمم المتحدة لأن الأمم المتحدة اعتبرت الصهيونية صورة من صور العنصرية والتمييز العنصري. ومن ثم فإنهم يحاولون أن يضفوا على الصهيونية تارة صورة الاتجاه الديني الروحي، وتارة أخرى صورة حركة تحرر وطني. التحرر الوطني ممن؟ من الفلسطينيين في فلسطين؟ أم من الروس في روسيا؟"

ويختتم الكتاب الروس رسالتهم بقولهم "إن الاهانة اليومية لكرامة الشعب الروسي بلغت حدا لا يمكن معه التعويل على صبر شعبنا وتسامحه. فلننهض ولنضع مصير روسيا بين أيدينا"!

لقد استمر الصراع الروسي اليهودي نحو ألف عام، ولازال. ولعل إحدى أهم الوثائق في ذلك المضمار ما كتبه الروائي العالمي دوستويفسكي بعنوان "المسألة اليهودية". ذلك أن هذا النص يكتسب أهمية لسببين: كونه صادرا عن أديب عالمي، وكونه تشريحا لموقف الشعب الروسي من اليهود.

* * *

المسألة اليهودية

"اسألوا السكان الأصليين في أطراف بلادنا: ماذا يحرك اليهود اليوم وماذا حركهم طيلة القرون؟ وسوف ترون أن الرد بالإجماع هو: "حركهم ويحركهم عدم الرحمة ورغبتهم في امتصاص عرقنا ودمائنا".
دوستويفسكي

* * *

توفى الروائي الروسي العالمي فيودور دوستويفسكي في 9 فبراير 1881 عن ستين عاما، بعد أن أثرى الأدب العالمي بروائع لا تتكرر، وبعد نحو عشر سنوات من رحيله صدرت الطبعة الرابعة من مؤلفاته الكاملة في سانت بطرسبورج عام 1891. وضم المجلد الحادي عشر من تلك الطبعة مقالا مهما للكاتب العظيم بعنوان "المسألة اليهودية". وقد نشر الكاتب ذلك المقال ضمن يومياته عام 1877، لكن الأوساط الصهيونية عملت على عدم إعادة نشر المقال، وامتد أثر تلك الملاحقة حتى في سنوات الدولة السوفيتية. والمقال وثيقة أدبية وسياسية بالغة الأهمية، يلقى فيه الروائي العظيم الضوء على موقف الشعب الروسي من اليهود، وتسامحه، ويبين بجلاء أن اليهود في علاقتهم بالشعوب التي عاشوا معها قد اعتمدوا دائما الأساليب ذاتها، أي ترويع كل من ينتقدهم واتهامه بالعداء للسامية حتى أن الكاتب العظيم يتساءل بدهشة ومرارة: "كيف أني وقعت في قائمة الذين يبغضون اليهود كيهود؟". جدير بالذكر أني قمت بترجمة هذا المقال من الروسية ونشرته في مجلة "أدب ونقد" العدد رقم 69 – مايو عام 1991، ثم أعادت نشره مجلة "زرقاء اليمامة" المصرية عام 1996. ثم ظهرت بعد ذلك ترجمات أخرى عديدة.

المسألة اليهودية

(1)

لا تحسبن إننى حقاً أرمى إلى طرح "المسألة اليهودية"، فقد وضعت عنوان هذا الفصل بصورة غير جادة. ذلك لأنه فوق استطاعتى أن أطرح مسألة جسيمة إلى هذا الحد، وهى مسألة وضع اليهود في روسيا، ووضع

روسيا التى يعيش وسط أبنائها ثلاثة ملايين من اليهود. هذا أمر يعلو فوق استطاعتى. بيد أن لديَّ بذلك الشأن بعض التصورات التي أخذ بعض اليهود يهتمون بها فجأة. هكذا صرت منذ وقت أتلقى رسائل من بعضهم يلومونني فيها بجدية ومرارة، لأننى على حد قولهم أهاجمهم وأضمر الكراهية لليهود "چيد"[1]، ليس لعيوب محددة فيهم كنزعة الاستغلال، ولكن بصفتهم شعبا، أي انطلاقا من القول بأن "يهوذا هو الذي باع السيد المسيح". يحرر تلك الرسائل يهود "متعلمون" (لاحظت ذلك لكنني لا أذهب لحد التعميم) ممن يجاهدون على الدوام للإيحاء بأنهم أمسوا بحكم ثقافتهم لا يشاركون قومهم– منذ زمن - خرافاتهم، ولا يؤدون طقوسهم الدينية كسواهم من بسطاء اليهود، ويحسبون كل ذلك على أنه أدنى من مستوى تعليمهم، وهم في الوقت ذاته لا يؤمنون بالله. أنوه هنا مغتنما هذه المناسبة بأنه من الخطايا الشديدة لأولئك السادة من "علية اليهود" الذين يناصرون قومهم بحماس، أن ينسوا ربهم "يهوه" الذى يقدر عمره بأربعين قرناً، وأن يتنازلوا عنه. وعندى أن هذا ضرب من الآثام ليس فقط من زاوية الشعور القومى، ولكن لاعتبارات أخرى أعظم شأناً. وعلاوة على ذلك فإنه أمر غريب، لأنه من المستحيل على الإنسان أن يتصور اليهود بدون الإله. غير أن هذه القضية كبيرة، ولذلك سننحيها جانبا مؤقتا.

إن الذى يدهشنى أكثر من أى شىء هو كيف ومن أين صرتُ أنا في تعداد من يبغضون اليهود كشعب وكقوم؟! إن أولئك السادة أنفسهم، يأذنون لى إلى حد ما بإدانة اليهودى بوصفه استغلالياً وبإدانة بعض عيوبه، بيد أنهم بالكلام فحسب يمنحونني ذلك الحق. أما في الواقع فمن العسير أن نجد إنساناً أكثر حساسية واهتياجاً من اليهودى المثقف بصفته يهوديا. مع ذلك فإنى أتساءل متى وكيف أعربت أنا عن كراهيتى لليهود كقوم وشعب؟ إن قلبى لم يعرف البتة تلك البغضاء، يعلم ذلك حق العلم أولئك اليهود الذين تعرفوا إليَّ ونشأت فيما بيننا علاقة، ولهذا فإنني بادئ ذي بدء أدفع عن نفسي هذه التهمة إلى أبد الدهر، لكي لا أعود إلى تفنيدها فيما بعد.

ترى هل يكون الداعى لاتهامى بكراهية اليهود أنى أطلق عليهم فى بعض الأحيان كلمة "چيد"؟ ولكنني - لا أعتقد ـ أولاً أن هذه التسمية تحمل معنى مهيناً إلى هذه الدرجة. ثانياً أنني استخدمت كلمة "چيد" بقدر ما أذكر للتعبير عن فكرة محددة وهى: "اليهودى ـ اليهودية ـ المملكة اليهودية". واستخدامى للكلمة جاء بصفتها مفهوما محددا بل واتجاها ووصفا للعصر.

على أنه يمكن أن نناقش هذه الفكرة، وبالاستطاعة أن نرفض قبولها، لكن من غير الممكن أن نشعر بالأذى منها. وإليكم مقتطفاً من رسالة يهودى مثقف، وأسجل لكم أنى اهتممت بهذه الرسالة الممتازة الطويلة، التي صبت هى الأخرى في تيار الاتهامات الموجهة لى بكراهية اليهود كجنس. من الطبيعى أن اسم السيد كاتب الرسالة سيظل غير معلوم. يقول السيد صاحب الرسالة:

"في نيتى أن أتناول مسألة ليس في مقدورى أن أفسر معناها لنفسى. هذه المسألة هى حقدكم على اليهود وقد ظهر جلياً في كل فصل من فصول "يومياتكم" تقريباً. وأود أن أعلم لماذا تهاجم اليهود بالذات؟ لماذا لا ينحصر هجومك على الاستغلاليين فقط؟ إننى لست أقل منك كراهية لخرافات قومى، (حيث عانيت منها الكثير). غير أنى لن أوافق أحدا على أن نزعة الاستغلال الوقح تسرى في دم اليهود كجنس. أليس في مقدورك أن تسمو إلى مستوى القانون الأساسى للحياة الاجتماعية القائل بأن جميع مواطنى الدولة الواحدة دون استثناء، أولئك الذين نهضوا بواجباتهم اللازمة لوجود الدولة، يجب أن يتمتعوا بجميع الحقوق والمنافع، وبأن هناك عقوبة واحدة لمن يخالف القانون وللأشرار من أعضاء المجتمع؟ ولماذا في مثل هذه الحال يتم فرض القيود على حقوق اليهود؟ لماذا تُسن لهم قوانين تأديبية خاصة؟ وما هى الفروق بين استغلال الأجانب للبلاد (واليهود من رعايا الدولة الروسية) سواء أكانوا من الألمان أو الإنجليز أو اليونانيين وأعدادهم ليست قليلة في روسيا، وبين الاستغلال اليهودى؟ بماذا يختلف مالك الأرض الأرثوذكسى الروسى "الكولاك" الذى يطلق عليه اسم مصاص الدماء، ويكثر أمثاله في روسيا عن زميله من اليهود، وهم يعملون في كل الأحوال داخل دائرة محدودة؟ بماذا يتميز الأول عن الثانى؟".

يقارن صاحب الرسالة الموقر عدداً من ملاك الأرض الروس المشهورين بعدد آخر من ملاك الأرض اليهود. يقصد من وراء ذلك التأكيد على أن الروس ليسوا أفضل من اليهود. لكن ما الذى يبرهن عليه هذا؟ من المعلوم أننا لا نتباهى بملاك الأرض الروس، ولا نقدمهم للناس كقدوة حسنة، بل نحن نؤيد كل التأييد فكرة أن هؤلاء وأولئك قوم سيئون. يمضي صاحب الرسالة قائلا:

"بوسعى أن أطرح عليك ألوفا من أسئلة مشابهة. إنك حين تطلق على اليهود لفظة "چيد" إنما تُدخل في تلك القائمة كل الجماهير الفقيرة. فهناك

ثلاثة ملايين من اليهود يعيشون في روسيا من بينهم مليونان وتسعمئة ألف نسمة على الأقل يخوضون نضالاً يائساً من أجل حياتهم الذليلة. أولئك اليهود، هم أطهر أخلاقاً ليس فقط من القوميات الأخرى وإنما أيضاً من شعبكم الروسى المعبود. إنك تُدخل في تلك القائمة عدداً كبيراً من اليهود الذين حصلوا على المؤهلات العليا، وهم يتميزون عن سواهم في كل مجالات حياة الدولة...".

ثم يعرض صاحب الرسالة عدداً من الأسماء، لا أثبت منها غير اسم "جولد شتاين". ذلك لأنه قد لا يروق لبعض الذين ذكرهم صاحب الرسالة أن يطالعوا على هذه الصفحات إنهم ينتسبون إلى الأصل اليهودى.

"وأود أن أستطلع رأيك في جولد شتاين الذى استشهد في "صربيا" دفاعاً عن القضية السلافية؟ لقد امتد حقدك على اليهود حتى اشتمل على "دذرائيلى" الذى لعله لا يعلم أن أجداده كانوا من اليهود الإسبان، والذى لا يقود بالقطع سياسة المحافظين البريطانيين من منطلق الإنسان "اليهودى"، واأسفاه إنك لا تعرف الشعب اليهودى. لا تعرف حياته وتكوينه الروحي. لا تعرف تاريخه على مدار أربعين قرناً من الزمان. لذلك، فأنت - لأنك إنسان مخلص شريف- تلحق الضرر ـ بدون وعى منك ـ بجماهير الشعب اليهودية الفقيرة. أما أولئك اليهود الأقوياء الذين يستقبلون في صالوناتهم أندادهم من أقوياء العالم، فهم بطبيعة الحال، لا يخشون الصحافة، ولا يقيمون وزناً لذلك الحقد العاجز لأولئك الواقعين في قبضات الاستغلال. بيد أنه تكفى مناقشة هذا الموضوع عند هذا الحد ، فلا أعتقد أننى سوف أقنعك بوجاهة رأيى، ولكننى أتمنى أن تقنعنى أنت بصحة رأيك".

ذلك هو المقتطف الذى أردت تقديمه من الرسالة. وأرجو أن ألفت الأنظار إلى شدة الهجوم ودرجة الحساسية الواردتين، وذلك قبل أن أرد على صاحب الرسالة (حيث أننى لا أريد أن يتهمنى أحد بهذه التهمة الخطيرة). إننى يقيناً لم أنشر خلال العام الذى صدرت فيه "اليوميات" مقالاً ضد اليهود له حجم ذلك الهجوم الذى ورد في تلك الرسالة. ثانياً ـ لا نستطيع أن نغفل أن صاحب الرسالة الموقر حين تعرض في بعض سطوره للشعب الروسى اتخذ من الشعب الروسى المسكين موقف الغطرسة والاستعلاء. على أية حال فإن قسوة النبرة في صوت صاحب الرسالة تُظهر لنا بجلاء، كيف ينظر اليهود أنفسهم إلى الروس؟. صاحب الرسالة إنسان متعلم وموهوب (لست موقنا حقا أنه تخلى عن الخرافات). إذن ماذا ننتظر

نحن من اليهودى غير المتعلم؟ كيف تكون مشاعره نحو الروس؟. إنى أقول هذا، ولا أوجه كلامى في قالب الاتهام، حيث أن كل ذلك يُعد شيئاً طبيعياً. أود فقط أن أشير إلى أن الشعب الروسى ليس وحده المسئول عن خلافاتنا مع اليهود، وأن دوافع الخلاف قد جعلت تتراكم من الناحيتين، فأصبحنا اليوم لا نعلم من أية ناحية كان التراكم أكثر؟. عقب هذه الإشارة أود أن أقول عدة كلمات لتبرأة نفسى، ولإيضاح كيفية نظرى إلى هذه القضية.

PRO AND CONTRE
(مع .. وضد)

(2)

فلنفترض أنه من العسير غاية العسر أن نعرف تاريخ اليهود على مدار أربعين قرناً. بيد أننى أعتقد أنه ليس هناك شعب آخر غير اليهود يواصل الشكوى من إذلاله وعذاباته ومصيره إلى هذا الحد وفى كل دقيقة. وبذلك يبدو الأمر كما لو أنهم ليسوا هم الذين يسودون أوروبا، وكأنهم ليسوا هم الذين يديرون فيها البورصات المالية. ومن ثم يتولون توجيه دفة السياسة والشئون الداخلية والأخلاقية للدول. حقاً إن جولد شتاين الشريف استشهد في سبيل القضية السلافية. ولكن لو لم تكن الفكرة اليهودية قوية إلى هذا الحد لكانت القضية "السلافية" قد حُلت منذ زمن بعيد لصالح السلافيين وليس لمصلحة الأتراك.

وإنى على استعداد للاقتناع بأن اللورد بيكونسفيلد قد نسى أنه ينتسب إلى اليهود الإسبان (ربما لم ينس). غير أننى لا أشك مثقال ذرة في أنه قاد سياسة المحافظين البريطانيين خلال السنة الأخيرة بمنظور وبرؤية "اليهودى".

لنفترض أن كل ما قلته من جانبي هو مجرد كلمات جوفاء سأتراجع عنها. لكنى لا أستطيع أن أصدق صراخ اليهود الذين يدعون بأنهم مضطهدون ومعذبون ومهانون إلى هذا الحد الذى يزعمونه، وفى رأيى أن الفلاح

الروسى، بل إن أى فرد روسى بشكل عام، يتحمل من الأعباء أكثر مما يتحمله اليهودى. كتب لى صاحب الرسالة السابقة رسالة أخرى يقول فيها:

"ينبغى أن يحصل اليهود على الحقوق المدنية (حيث أنهم محرمون حتى اليوم من حقهم الأساسي في الاختيار الحر لموقع إقامتهم، الأمر الذي تسبب من دون شك في مشاكل لجماهير اليهود) كما ينبغى أيضاً منح هذه الحقوق لجميع الأقليات في روسيا. وفقط، بعد أن يحدث ذلك، يصبح في الإمكان أن نطالب أولئك بالقيام بواجباتهم حيال الدولة والسكان الأصليين".

لكن ألم تفكر يا صاحب الرسالة وأنت تخط لى في صفحة أخرى من رسالتك ذاتها قولك إنك تحب جماهير الشعب الروسى الكادحة أكثر مما تحب اليهود؟ (عبارة قوية للغاية بالنسبة ليهودى)، ألم تفكر أنه كان هناك ثلاثة وعشرون مليوناً من الجماهير الكادحة الروسية تعانى من نظام الرق وأن الوطأة كانت أشد ثقلاً على الكواهل من مسألة اختيار مكان الإقامة؟ ألم تفكر أنه قد حدث ذلك في الوقت الذى عانى فيه اليهود من مشكلة الاختيار الحر لمكان الإقامة؟ هل أبدى اليهود في ذلك الحين عطفاً على الروس؟ لا أعتقد ذلك وتجيب عن هذا السؤال ظروف المعيشة والحياة في الأطراف الغربية لروسيا وفى جنوبها.

إن اليهود في ذلك الحين كانوا يوالون الصراخ مطالبين بحقوق لم يحصل عليها الشعب الروسى نفسه. كانوا يواصلون الصراخ ويملأون الدنيا بالشكاوى من أنهم مضطهدون وشهداء، ويقولون: "اطلبوا منا أن ننهض بواجباتنا حيال الدولة والسكان الأصليين بعد أن تمنحونا حقوقاً أكثر".

ثم أتى بعد ذلك من حرر السكان الأصليين من نظام الرق[2]. ولكن ماذا جرى بعد ذلك؟ كان اليهود أول من اقتنص السكان الأصليين كما يقتنص الصائد الفريسة، واستغلوا عيوبهم، وجروهم إلى المصائد بحبال ذهبية؟ من هم الذين حلوا في كل موقع حيثما استطاعوا محل الإقطاعيين بعد أن تم إلغاء نظام القنانة؟ مع فارق وحيد أن الإقطاعيين كانوا يستغلون الناس استغلالاً شديداً، لكنهم حاولوا ألا يستهلكوا القوى العاملة؟ أما اليهود فليس يعنيهم إلى أى حد تُستهلك القوى العاملة الروسية. إنهم يحصلون على ما يبتغون ثم ينصرفون.. اعلموا أن اليهود بعد مطالعاتهم هذه السطور سيدعون أن كل هذا ليس صحيحاً بل هو أقرب إلى الافتراء. سيزعمون أنى أكذب إذ أصدق كل هذه الخرافات، إذ لا أعرف تاريخ أربعين قرناً لأولئك الملائكة الأطهار الذين هم أطهر أخلاقياً ليس فقط من القوميات الأخرى بل

ومن الشعب الروسى الذى أعبده... دعهم يكونوا أطهر خُلقاً من الشعوب كلها، ومن الشعب الروسى ضمناً بطبيعة الحال. بيد أننى طالعت في عدد من مجلة "أخبار أوروبا" صادر في شهر مارس أن اليهود في الولايات المتحدة الجنوبية من أمريكا انقضوا على ملايين الزنوج المتحررين، وربطوهم بالتبعية لهم بطريقتهم الخاصة، أى بواسطة "مهنتهم الذهبية" المعروفة، مستغلين في ذلك عيوب أولئك القوم، ونقص الخبرة لديهم. وحين طالعت ذلك، تذكرت أن هذا الخاطر ذاته طرأ لى منذ خمسة أعوام، فقد تصورت أن الزنوج - على الرغم من تحررهم من ملاك العبيد – لن يكون أمامهم مفر من اليهود الذين سينقضون عليهم كفريسة طازجة. أذكر أننى سألت نفسى أكثر من مرة، بعد أن خطرت تلك الفكرة ببالى ـ لماذا لا ترد أية أنباء عن اليهود؟ لماذا لا تكتب الصحف شيئاً يُوضح الأمر؟ كنت أطرح ذلك السؤال على نفسى لأننى كنت أعتقد أن أولئك الزنوج يمثلون كنزاً لا يمكن لليهود أن يفلتوه. وأخيراً وردت الأنباء وكتبت الصحف وطالعت عما يجرى هناك. وقرأت منذ عشرة أيام في "العصر الحديث" العدد 381 خبراً وارداً من كرفنو (هى مدينة فيلنوس عاصمة ليتوانيا حالياً ـ المترجم) مؤداه أن اليهود هناك انقضوا على السكان اللتوانيين الأصليين وأوشكوا أن يقضوا عليهم بتعويدهم احتساء الفودكا. ولم ينقذ السكان من الموت غير القساوسة الكاثوليك الذين أرهبوهم بعذاب الجحيم، وأقاموا لهم جمعيات لمقاطعة الخمر أسموها جمعيات "الصواب". وقد أبدى المراسل الذى كتب عن هذا الموضوع سخريته بأولئك الذين مازالوا يصدقون رجال الدين وعذاب الجحيم، لكنه أضاف فيما بعد أن الاقتصاديين المثقفين راحوا بعد رجال الدين يشيدون بنوكاً قروية لإنقاذ الشعب من المرابين اليهود. ثم أنشأوا أسواقاً ريفية تجعل في استطاعة "الجماهير الكادحة الفقيرة" الحصول على لوازم الحياة الضرورية بالسعر الرسمى، وليس بالسعر الذى يحدده اليهودى. لقد قرأت عن كل هذا، وأعلم أن هناك من يدعى بأن كل هذا لا يعنى شيئاً، وأن السبب في كل ذلك أن اليهود أنفسهم قوم مضطهدون وفقراء، وأن الأمر كله صراع من أجل البقاء، وأن الأبله فقط من لا يستطيع فهم تلك الحقيقة. لو لم يكن اليهود أنفسهم فقراء إلى هذا الحد، ولو أصبحوا أغنياء لأشرقت في نفوسهم النواحى الإنسانية، ولأدهشوا بذلك الدنيا كلها. بيد أن أولئك الزنوج وهؤلاء اللتوانيين هم في الحقيقة أشد فقراً من اليهود الذين يعتصرونهم، وعلى الرغم من ذلك فإن الزنوج

واللتوانيين لا ينزلون إلى أسواق التجارة التى يمارسها اليهود. ثانياً ـ ليس من العسير أن يكون المرء إنساناً ذا أخلاق عالية حين يحيا حياة غنية سعيدة. أما حين يدور الكلام عن صراع البقاء، فلا تقترب من ذلك الإنسان. ولا تُعد هذه في رأيى من الصفات الملائكية. وثالثاً ـ إنى لا أقدم هذه الأنباء من مجلتى "أخبار أوروبا" و"العصر الحديث" على أنها حقائق أساسية وحاسمة. ولو أن المرء شرع يكتب تاريخ هذه القبيلة العالمية، فسيجد على الفور مئة ألف حقيقة من هذا النوع. ولهذا فإن حقيقة واحدة أو حقيقتين لا تضيفان شيئاً إلى ما ذكرناه. ولعله من المستغرب أنك إذا أعوزتك خلال الحديث أو المجادلة معلومات عن اليهودى أو أعماله، فلن تجد نفسك بحاجة إلى التوجه للمكتبة، ولا بحاجة إلى تصفح الكتب القديمة أو مذكراتك الخاصة. بل ولن تجد نفسك بحاجة إلى بذل أى مجهود، يكفى ـ بدون أن تغادر مكانك، بل وبدون أن تنهض من كرسيك ـ أن تمد يدك إلى أول جريدة تلمسها، وأن تنظر إلى الصفحة الثانية أو الثالثة منها. عندئذ ستجد بالحتم شيئاً عن اليهود. ستجد ما يهمك بالذات. ستجد قصصاً تروى عن نفس المآثر. وسوف يكشف لك هذا بالطبع عن شىء ما، وإن كنتَ جاهلاً جهلاً مطلقاً فيما يتعلق بتاريخ اليهود على مدى أربعين قرناً، ومن الطبيعى أن هناك من سوف يرد علىَّ قائلاً ـ إن كل من يكتب في هذا الموضوع معبأ بالحقد ولهذا يكذب. من الطبيعى أيضاً أنه لا يمكن للأمر أن يحدث هكذا ـ أى أنه لا يمكن أن يكون الناس كلهم كذابين.

هنا على أية حال ـ سؤال يطرح نفسه: "إذا كان جميع الناس يكذبون لأنهم ممتلئون بالحقد، فمن أين جاء هذا الحقد؟، لابد أن لهذا الحقد لدي الجميع معنىً ما، كما قال "بلينسكى" ذات يوم (لابد أن لفظة الجميع تعنى شيئا ما). "الاختيار الحر لمكان الإقامة". ترى هل أن الإنسان الروسى حر حرية مطلقة فيما يتصل باختيار مكان الإقامة؟ أليست باقية إلى الآن تلك القيود المفروضة على حرية اختيار مكان الإقامة بالنسبة للمواطنين الروس؟ تلك القيود التى خلفها نظام الرق والتى التفتت إليها الحكومة منذ زمن؟ أما فيما يتعلق باليهود، فإن الجميع يرى أن حقهم في اختيار مكان الإقامة قد اتسع على نحو كبير في العشرين عاماً المنصرمة. على كل حال لقد ظهر اليهود في روسيا في مناطق لم يرهم أحد فيها من قبل. مع ذلك فإنهم مازالوا يواصلون شكواهم من الحقد والاضطهاد. واعترف بأنى لا أعرف الحياة اليهودية معرفة جيدة غير أنى أعلم حق العلم أن شعبنا لا

يضمر حقداً دينياً غبياً على اليهود، حقداً منبثقاً من العبارة القائلة إن "يهوذا خان المسيح"، حتى لو سمعنا شيئاً من هذا القبيل على ألسنة الأطفال أو السكارى. إن شعبنا بالرغم من ذلك ينظر إلى اليهود بدون أحقاد. وإنى أعرف ذلك منذ خمسين سنة مضت. لقد عشت مع الشعب بين جماهيره المختلفة بل وفى العنابر، وتقاسمت مع الناس حشايا النوم ذاتها. كان معنا بعض اليهود ولم يكن أحد يحقد عليهم أو يطردهم. وحين كان اليهود يقومون بالصلاة (وهم حين يصلون يطلقون الهتافات ويرتدون أزياء خاصة)، لم يكن أحد يرى في ذلك أمرا غريبا، ولم يعرقل أحد صلواتهم، ولم يسخر أحد بهم. لعل ذلك حسب مفهومك كان المتوقع من شعب خشن مثل الشعب الروسى. وعلى العكس من ذلك كان الروس يقولون في مثل هذه الحالات: "هكذا هى ديانتهم وهى تفرض عليهم الصلاة على هذا النحو". ثم يمرون بهم في هدوء وهم يستحسنون صلاتهم تقريباً. وعلى الرغم من ذلك الموقف كان أولئك اليهود يتجنبون الروس! ويرفضون أن يأكلوا معهم. ويتخذون منهم موقف الغطرسة والاستعلاء (وقع ذلك حين كنا في السجن...) بل كان اليهود يعبرون بصورة عامة عن حقدهم على كل شىء روسى وعلى "الشعب الأصلى". ويمكن أن نجد الشىء ذاته في معسكرات الجنود بل وفى كل مكان في روسيا. اذهب بنفسك واسأل ـ هل يطارد أحدُ يهودياً في ثكنة عسكرية لأنه يهودى؟ أى لانتمائه للدين اليهودى؟ هذا لم يحدث البته. هكذا الحال بين كل طوائف الشعب. وعلى العكس من ذلك، فإن الإنسان الروسى يرى بعينيه، ويدرك في كل مكان (وذلك ما لا يخفيه اليهود أنفسهم) أن اليهودى يرفض أن يؤاكله، ويتجنبه دائماً. وبدلاً من أن يغضب الروسى، فإنه يقول بهدوء ووضوح: "هكذا هي ديانته. هى التى تفرض عليه ألا يؤاكلنا، وأن يتجنبنا". ثم يغفر الروسى لليهودى حين يدرك هذا الدافع السامي. وإنى أتخيل فى بعض الأحيان ما كان سيحدث لو أن روسيا كانت تضم ليس ثلاثة ملايين من اليهود وثمانين مليوناً من الروس، ولكن ثلاثة ملايين من الروس وثمانين مليوناً من اليهود؟ كيف كانت ستصبح علاقة اليهود بالروس ومعاملتهم إياهم في مثل تلك الحال؟ ترى هل كان اليهود سيمنحون الروس حقوقاً متساوية؟ هل كان اليهود سيسمحون للروس بأداة صلاتهم في حرية؟ أما كان اليهود سيحولون الروس إلى عبيد لهم؟ بل ويصنعون بهم ما هو أسوأ من ذلك ويسلخون جلودهم؟ أما كانوا ليضربونهم ويجلدونهم كما فعلوا ذلك في فجر تاريخهم مع القوميات

الأخرى؟ لا ـ إننى أؤكد لليهود أن الشعب الروسى لا يضمر حقداً عليهم، ربما لا يشعر بالتعاطف معهم، وقد يكون ذلك التعاطف قوياً في بعض الأماكن. لا شك أن هذا أمر قائم لكن ليس بسبب عدم التعاطف مع اليهودى لأنه يهودى، كذلك ليس سببه قبلياً أو دينياً، لكن عدم التعاطف ذاك ينشأ لأسباب أخرى. ولا يعتبر الشعب الروسى مسئولاً عن هذا، فالمسئولون بالدرجة الأولى هم اليهود أنفسهم.

STAUS IN STATU
(دولة داخل الدولة)

أربعون قرناً من الوجود

(3)

يتهم اليهود السكان الأصليين بالحقد المؤسس على التحفظات. وما دام الحديث يتطرق إلى التحفظات، فماذا تحسبون أن تحفظات اليهود نحو الروس أقل من تحفظات الروس نحو اليهود؟ أم أكثر؟. لقد قدمت عدة أمثلة على مواقف الروس البسطاء من اليهود. وأمام عينى رسائل يهود من غير البسطاء بل من اليهود المتعلمين والمثقفين. كم من الأحقاد تنطوى عليها تلك الرسائل؟ الأحقاد على السكان الأصليين؟ أهم من ذلك أنهم لا يلاحظون أحقادهم تلك. لم يكن بوسع اليهود المفعمين بالحيوية والنشاط والقوة على نحو لا نظير له أن يعيشوا إلا في حالة Status in Statu (دولة داخل دولة - الجيتو)، كى يواصلوا البقاء على مدى أربعين قرناً من الزمان، أى خلال تاريخ الإنسانية، في وحدة توثق عراهم. خسر اليهود أرضهم، واستقلالهم السياسى، وقوانينهم أكثر من مرة. وتعين عليهم كى يسترجعوا كل ذلك، مرة بعد الأخرى، أن يعيشوا في حالة Status in Statu، الحالة التى حرصوا على الاحتفاظ بها في كل مكان خلال المطاردات والملاحقات والتشتت. وإنى حين أشير إلى تلك الحالة لا أرمى إلى توجيه تهمة، ولكن كيف تتلخص حالة Status in Statu؟ وفيم تكمن فكرتها الأبدية التى لا تتبدد؟ وفيم يكمن جوهر هذه الفكرة؟

من المستحيل أن نعرض هذا الموضوع في مقال قصير ولعل أحد أسباب تلك الاستحالة إنه لم يحن الأوان المناسب بعد على الرغم من مرور

الأربعين قرناً المنصرمة. فسوف تقول البشرية كلمتها الأخيرة عن هذه القبيلة العظيمة في المستقبل.

مع ذلك فإننا نستطيع بدون التعمق في جوهر المسألة أن نقوم بتصوير بعض ملامح حالة Status in Statu أو على الأقل بعض ملامحها الظاهرة. ومن بين هذه الملامح سنرى الاغتراب والعزلة في إطار العقيدة الدينية، وعدم اندماج اليهود بالآخرين، وإيمانهم بأنه لا توجد هناك سوى شخصية تاريخية واحدة هى شخصية اليهودى. أما الناس الآخرون، وعلى الرغم من أنهم موجودون، فلابد من النظر إليهم كما لو أنهم غير موجودين.

"اطلع من بين الشعوب. وقم بتشكيل ذاتك، وعليك أن تعلم أنك الوحيد عند الرب حتى الآن". "قم بقتل الآخرين أو اتخذ منهم عبيدا أو فلتقم باستغلالهم". "ثق بانتصارك على العالم كله، وبأن كل شىء سيخضع لك". "تجنب الجميع. ولا تختلط في حياتك بأحد. وثق بما أنت موعود به حتى حين تفقد أرضك وشخصيتك السياسية وحين تتبعثر على وجه الأرض بين مختلف الشعوب ثق بأن كل شىء سيأتى في حينه. ولكن، حتى يحين ذلك الأوان عش، وتجنب، واتحد، واستغل الآخرين، وعليك خلال ذلك أن تنتظر".

هذا هو جوهر فكرة Status in Statu على أن هناك قوانين داخلية سرية سائدة تحمى هذه الفكرة.

تدعون أيها السادة اليهود المتعلمون، بأن: "كل هذا كلام باطل وبأنه حتى لو كان هناك حالة Status in Statu (لم تعد لها الآن سوى آثار ضئيلة إن كانت فعلاً عاشت في الماضى) فإن المطاردات الدينية في القرون الوسطى وما قبلها هى التى أدت إلى تلك الحالة Status in Statu التي نشأت فيما مضى من إرادة البقاء. والسبب في استمرار تلك الحالة في روسيا أن اليهود فيها غير متساوين في الحقوق مع السكان الأصليين".

بيد أن الإشارة إلى المطاردات والرغبة فى البقاء، لا تكفى لتفسير ميثاق الـ Status in Statu. ذلك لأن التصميم على البقاء لا يمكن أن يستمر طوال أربعين قرناً من الزمان. فكم من حضارات كانت أشمخ وأقوى لم تستطع الحياة نصف الأربعين قرناً، وفقدت قوتها السياسية ووجهها القبائلى. ليس حب البقاء إذن هو العامل الأساسى ولكن السبب في نشوء Status in Statu هو فكرة مسيطرة، أو عنصر يمتد منبثاً على مستوى العالم، ولعله شيئا ذا أبعاد وأعماق، ليس بوسع البشرية حتى الآن أن تصدر عليه حكمها نهائياً كما ذكرت سلفاً. ومما لا ريب فيه أن الطابع الدينى يشغل في

هذه الفكرة المسيطرة مكان الصدارة. فمن الجلى أن "يهوه" ما زال بعهده ومبادئه يقود شعبه إلى الهدف النهائى. من المستحيل أن نتصور اليهودى بدون إله. إننى لا أصدق اليهود المتعلمين والمثقفين حين يزعمون بأنهم ملحدون، حيث أن اليهود جميعا من أصل واحد. والله وحده هو الذى يدرى ماذا يمكن أن ينتظر العالم من اليهود المتعلمين المثقفين... لقد طالعت في طفولتى أسطورة مؤداها أن اليهود يترقبون حتى اليوم المسيح المنتظر، ينتظرونه على اختلاف درجاتهم بدءاً من اليهودى البسيط وانتهاء بالعالم الفيلسوف والحاخام. إنهم جميعاً يؤمنون بأن المسيح المنتظر سيجمعهم مرة أخرى في القدس وسيرمى بسيفه جميع الشعوب تحت أقدامهم. ولهذا السبب يُفضل أغلب اليهود مهنة واحدة هى تجارة الذهب، ليسهل عليهم نقل الذهب والمجوهرات إلى حيث يظهر المسيح المنتظر عندما:

تبــزغ أشعـــة الفجـــر
وتعــزف الآلات الموسيقيـــة
سنحمل الفضة، والخير، والمقدسات
نحملهــا إلــى بيتنـا القديــم
في فلسطين...

لقد سمعت هذا حين كنت طفلاً كالأسطورة. غير أنى أعتقد بأن جوهر الموضوع موجود بالفعل، وبأن جماهير اليهود تضمر بداخلها كل ذلك بالفعل، وبأنه ينعكس في صورة الرغبة التلقائية التى لا يمكن مقاومتها. غير أنه لابد - للاحتفاظ بجوهر الموضوع- من الإبقاء على ميثاق الـ Status in Statu ولهذا، فإن السبب في وجود هذا الميثاق أو الحفاظ عليه بهذه الحالة ليس المطاردات وحدها... وإنما فكرة أخرى...

وإذا كان حقاً لليهود نظام داخلى خاص دقيق يربط ما بينهم، ويجعل منهم كتلة واحدة متكاملة، فإن هذا يبرر طرح مسألة المساواة بين حقوقهم وحقوق السكان الأصليين. نحن بطبيعة الحال يجب أن نقدم لليهود كل ما تتطلبه الاعتبارات الإنسانية والقانون المسيحى. لكن إذا طالب اليهود بالمساواة الكاملة بين حقوقهم وحقوق السكان الأصليين، وهم متسلحون بخصائص نظامهم، وبمكانتهم الاستثنائية، وباغترابهم وعزلتهم الدينية والقبلية، وبمبادئهم المتنافية تماماً مع الفكرة التى تطور طبقاً لها العالم

الأوربى حتى اليوم، ألا يحدث والحال هذه، أن اليهود يحصلون على شىء أزيد وأكبر مما يحظى به السكان الأصليون؟

هناك بالطبع من سوف يشير إلى الأجانب الآخرين بدعوى أنهم متساوون أو متساوون في الحقوق تقريباً مع السكان الأصليين. وسوف يشير أيضاً إلى أن:

"حقوق اليهود أقل من حقوق أولئك الأجانب. وذلك لأن الناس يخشوننا ـ نحن اليهود ـ حيث أنهم يروننا أكثر ضرراً من مختلف الأجانب. ولكن بأى شىء ينزل اليهودى ضرره؟ لو كانت لليهود مساويء فالسبب في ذلك هو الشعب الروسي الذي يساعد على تكوين تلك المساوئ بجهله وعدم قدرته على الاستقلالية وتدهور ثقافته وضعف تطوره الاقتصادي. الشعب الروسي هو الذي يحتاج إلى السمسار والمدير والوصي الاقتصادي والمرابي. الشعب الروسي نفسه يدعو إليه أولئك ويسلم مقاليد أموره إليهم. وانظروا إلى أوروبا. إن شعوبها أقوى وأكثر استقلالية وأنضج تطورا قوميا. وقد اعتادت تلك الشعوب على ممارسة العمل والتبارى فيه. ولذلك لم تعد تخشى أن تمنح اليهود حقوقاً... هل تراهم في فرنسا يذكرون شيئاً عن الضرر الناجم من الـجيتو الذى يضم يهود فرنسا؟".

قد يبدو هذا الحديث محبوكا. بيد أنه يمكن اختتامه بملاحظة بين القوسين: إن كل هذا يدل على أن اليهود يحيون حياة أفضل هناك حيث الشعب مازال غير حر، أو جاهلاً، أو متخلفاً من الناحية الاقتصادية، وبدلاً من أن يرفع اليهود بنفوذهم من مستوى التعليم، وبدلا من أن يعززوا العلم، وبدلا من أن يعملوا لتوليد القدرة الاقتصادية لدى السكان الأصليين، فإن اليهود يشرعون أينما أقاموا في إفساد الشعب وإذلاله. ومن ثم يتدهور مستوى التعليم ويتدهور وينتشر الفقر أكثر فأكثر، وينمو معه اليأس فلا يكون للشعب منهم مفر. اسألوا السكان الأصليين في أطراف بلادنا: ماذا يحرك اليهود اليوم وماذا حركهم طيلة القرون؟ وسوف ترون أن الرد بالإجماع هو: "حركهم ويحركهم عدم الرحمة، ورغبتهم في امتصاص عرقنا ودمائنا". والحقيقة أن نشاط اليهود في أطراف بلادنا، يتركز فقط في أن يجعلوا سكان البلاد الأصليين في حالة تبعية لهم، وذلك عن طريق الاستفادة بالقوانين المحلية، والتحايل على إيجاد منافذ لاستخدام القوانين لصالحهم، واستطاعوا بصورة دائمة أن يعقدوا الصداقات مع الذين يمسكون بزمام مصير الشعب. لهذا فليس اليهود من يحق لهم إطلاق شكواهم من ضآلة

حقوقهم إذا قيست بحقوق السكان الأصليين. فقد حصلوا منا على حقوق كافية تمنحهم امتيازات كثيرة إذا هى قورنت بحقوق السكان الأصليين. ويشهد تاريخ أطراف البلاد الروسية بما جرى للشعب الروسى في المناطق التى استقر فيها اليهود خلال عشرات ومئات السنين. وبعد، هل بوسعكم أن تحددوا أية قومية من قوميات روسيا يمكن مقارنتها باليهود من حيث تأثيرها ونفوذها الرهيبين؟ إنكم لن تجدوا مثل هذه القومية حيث أن اليهود من هذه الزاوية، يحتفظون باختلافهم عن الأجانب الآخرين في روسيا. والسر وراء ذلك هو ميثاق الـ Status in Statu (الجيتو) الذى يطالب اليهود بعدم رحمة كل من هو غير يهودي، كما يطالبهم بعدم تبجيل أية أقوام أخرى وأية قبائل وأى مخلوق غير يهودى.

ثم أهي حجة مقنعة أن شعوب غرب أوروبا لم تُمكن اليهود من السيطرة على مقدراتها وأن الشعب الروسى أضعف من الشعوب الأوربية؟ وبذلك يصبح هو نفسه المسئول عن كل ما يجرى في أطراف البلاد الروسية؟ (والسبب الوحيد في ذلك الوضع هو قسوة الظروف السياسية طيلة قرون). أهي حجة مقنعة أنه بناء على ما سبق ينبغى قمع الشعب لاستغلاله؟ وليس بسط يد العون له ومساعدته؟ ولو كان هناك من يشير إلى فرنسا فليس معنى ذلك أن الـ Status in Statu كان غير ضار بها. من المسلم به أن انحلال المسيحية وفكرتها يجرى هناك لسبب غير اليهود. بيد أنه تنبغى الإشارة إلى أن انتشار روح اليهودية في أوروبا قد استبدل الكثير من أفكار اليهودية بأفكارها، ومما لا شك فيه أن الإنسان كان دائماً أميل إلى فهم الحرية على أنها تأمين حياته بالمال، وأنها جمع ذلك المال بمختلف الوسائل، وعاش يعبد المادة.

غير أن تلك المطامح لم تصبح مبدأ "سامياً" مثلما حدث هذا في قرننا التاسع عشر. "كل إنسان من أجل نفسه فقط. ولا علاقة بين الفرد والمجتمع غير تلك التى تحقق مصلحة الفرد". هذا هو المبدأ الأخلاقى الذى يطبقه أغلب الناس المعاصرين[1]. وليس هذا المبدأ وقفاً فقط على السيئين منهم، لكنه المبدأ الذي يطبقه أيضاً الكادحون ممن لا يمارسون السرقة والقتل. من المؤكد أن عدم الرحمة تجاه الطبقات الدنيا، وانهيار روح الإخوة، واستغلال الغنى للفقير، كان موجوداً كله في الماضى وبشكل دائم،

---

[1] هذه هى الفكرة الأساسية للبورجوازية التى أحلت قيمتها محل النظام العالمى في نهاية القرن الماضى، والتى غدت فكرة جوهرية لهذا القرن في العالم الأوروبى بأسره (تعليق دوستويفسكى).

ولكن ذلك كله لم يكن يرتفع إلى مستوى الحقيقة العليا والعلم، إذ كانت المسيحية تواصل إدانته. أما اليوم فيعتبر كل ذلك خيراً. لهذا، فليس من قبيل المصادفة أن اليهود يسيطرون على البورصات المالية في كل مكان، ويتحكمون في حركة رأس المال، ويهيمنون على عمليات القروض. هذا لأن اليهود يتحكمون في السياسة العالمية كلها. وعما قريب ستأتى مملكتهم ـ مملكتهم الكاملة[2]... عما قريب يحل زمن انتصار الأفكار التى تذبل في ظلها مشاعر حب الإنسانية، وتتساقط الرغبة في البحث عن الحق، والمشاعر المسيحية والقومية، والكرامة القومية للشعوب الأوروبية. عما قريب يحين زمن سيطرة المادة والمطامع العمياء، ويصبح كل شىء هو التأمين المادى الشخصى، وهو جمع المال بمختلف الوسائل. لقد صار ذلك، هدفاً أسمى، هدفاً معقولاً، صار معنى التحرر الذى حل محل الفكرة المسيحية الخاصة بالخلاص عن طريق التوحيد الأخلاقى الأخوى وثيق العرى بين الناس.

ولعل هناك من سوف يسخر قائلاً: ليس بسبب اليهود يأتى كل هذا. ومن المعلوم أن هذا الوضع لا ينشأ بسبب اليهود وحدهم. غير أنه، مادام اليهود قد انتصروا وازدهروا في أوروبا، في الوقت الذى انتصرت وازدهرت فيه هذه الظواهر الجديدة، وكان انتصارها وازدهارها إلى الحد الذى ارتفع بها إلى مستوى المبدأ الأخلاقى، فلابد من الاستنتاج بأن اليهود قد مارسوا هنا تأثيرهم أيضاً.

وقد يعترض قائل بأن اليهود فقراء ـ وفقراء في كل مكان وبخاصة في روسيا، وأن صفوة اليهود هى فقط التى تتألف من أصحاب البنوك وملوك البورصات، بينما يلهث تسعة أعشار اليهود وراء "كوبيكات" ليحصلوا على لقمة خبز. وقد يبدو هذا صحيحاً. ولكن ما هو المعنى الذى ينطوى عليه؟ أليس معنى ذلك أن شيئاً شاذاً وغير طبيعى يكمن في الأعمال التي يمارسها اليهود أنفسهم؟ وأن استغلالهم لغيرهم من الناس ينقلب عقابا لهم؟

إن اليهودى يعمل بالوساطة والسمسرة المالية، يتاجر بعمل غيره، ورأس المال هو تجسيد للعمل المتراكم. واليهود لا يحبون شيئاً قدر حبهم للمتاجرة بعمل الآخرين على أن هذا لا يبدل من الأمر شيئاً حتى الآن. أما صفوة اليهود فإنها تتسامى فوق البشرية أعلى فأعلى، وتسعى إلى أن تضفي شكلها وجوهرها على الدنيا بأسرها. ويزعم اليهود أنه يوجد بينهم

---

[2] وهكذا توقع دوستويفسكى قيام دولة إسرائيل منذ مئة سنة، حيث كتب هذا الفصل عام 1877.

قوم طيبون. مغفرة يا رب... هل تنحصر قضيتنا في تلك الدائرة؟ هل يدور حديثنا حول أناس طيبين أو أناس أشرار؟ وهل ينقصنا الأشرار؟ ألا يوجد قوم طيبون بين أولئك؟ هل كان المرحوم جيمس روتشيلد من باريس إنساناً سيئاً؟ نحن نتحدث بصورة عامة عن الروح اليهودية، عن الفكرة اليهودية التى شملت العالم، وحلت محل "الفاشية".

لكن... فلتحيا الأخوة

(4)

ترى ماذا أقول؟ ولماذا أتحدث؟ هل أنا حقاً عدو لليهود؟ هل صحيح أننى أناصب أولئك القوم "المساكين" أشد العداء، وأحمل عليهم كلما سنحت فرصة حملات قاسية؟ هل أن ذلك صحيح كما كتبت لي فتاة يهودية شريفة ومتعلمة (وهذا واضح من رسالتها العامرة بمشاعرها الحارة المخلصة):

"واضح تمام الوضوح، حقدك على اليهود الذين – على حد قولك - لا يهتمون إلا بأنفسهم فقط. حقدك على أولئك واضح تمام الوضوح".

كلا... إنى أرفض هذا الوضوح، وأود أن أناقش الفتاة. لقد كتبتُ مطالبا بوجوب منح اليهود كل ما توجبه الاعتبارات الإنسانية والقانون الإنسانى والمسيحى، وأود أن أضيف إلى ذلك، أنى بغض النظر عن جميع الاعتبارات التى طرحتها، أعلن تأييدى لتوسيع حقوق اليهود في التشريع الرسمى وتأييدى أيضاً للمساواة الكاملة بين حقوقهم وحقوق السكان الأصليين إذا أمكن ذلك. (وإن كان لهم في بعض الأحيان حقوق أوسع وإمكانيات أكبر للانتفاع بتلك الحقوق أكثر مما بها السكان الأصليين).

وإنى لتخطر على بالى في الوقت ذاته الفكرة التالية: ترى... ماذا سيحدث لو أن الجمعية الزراعية التى تحمي الفلاح الفقير من المخاطر انهارت لسبب من الأسباب؟ ماذا سيحدث لو اجتاح اليهود أولئك الفلاحين المتحررين حديثاً من قيود العبودية وغير المسلحين بأية خبرة والعاجزين عن مقاومة ألوان الإغراء المختلفة التى حمتهم منها الجمعيات الزراعية؟ أعتقد أنه لو جرى ذلك فستكون تلك نهاية الفلاحين، لأن كل ما يمتلكونه سينتقل فورا إلى قبضة اليهود. عندئذ تأتى الفترة التى يستحيل أن نقارنها حتى بعهد نظام الاسترقاق، بل وتصعب مقارنتها بفترة الاحتلال التتارى أيضاً.

بيد أننى على الرغم من ذلك كله، أعد نفسى من دعاة المساواة الكاملة والنهائية لأن ذلك يتواءم مع القانون والمبدأ المسيحى. ومادام الأمر هكذا فلم إذن كتبتُ الصفحات السابقة؟ ماذا أردت أن أعبر عنه؟ أم أنني أتناقض مع نفسى؟ لا... أنا لا أتناقض مع نفسى. أنا لا أمانع ـ من وجهة نظر روسية ـ من توسيع حقوق اليهود. ولكننى في ذلك الوقت أشير إلى أن العوائق الحائلة دون توسيع هذه الحقوق تأتى من جانب اليهود أكثر مما تأتى من جانب الروس. وإذا لم يتحقق حتى اليوم، ما أصبو إلى تحقيقه من صميم قلبى، فإن ذنب الروس في هذا أقل بكثير من ذنب اليهود.

لقد أشرت فيما سلف إلى اليهود البسطاء وكيف أنهم لا يريدون أن يتعاملوا مع الروس بل لا يريدون أن يؤاكلوهم. ومع ذلك لم يغضب الروس من ذلك التصرف، ولم ينتقموا من أحد، بل إنهم على العكس غفروا لهم وقالوا بأن ديانتهم اليهودية تفرض عليهم هذا السلوك. هذا عن اليهود البسطاء. أما المثقفون، فنحن كثيراً ما نلاحظ في اليهود المثقفين نفس التحفظ حيال الروس. هم يدعون بأنهم يحبون الشعب الروسى. وقد كتب لى أحدهم أنه يؤسفه أن الشعب الروسى ليس له دين، وأن الشعب الروسى لا يفهم شيئاً في المسيحية. وكثير على اليهودي أن تصدر منه عبارة كتلك. ترى... هل يفقه هذا اليهودى المتعلم نفسه شيئاً في المسيحية؟! لكن ماذا بوسعنا أن نفعل إذا كان الاغترار والاستعلاء من سمات اليهودى؟ أقسم إننى أكثر ميلاً إلى تبرير موقف الروسى، على الأقل لأنه لا ينطوى في أعماقه على كراهية دينية لليهود.

أما عن التحفظات الأخرى، فإن لنا أن نسأل: عند أى من الجانبين تزيد تلك التحفظات؟ يزعم اليهود أنهم كانوا مضطهدين ومطاردين طوال قرون. هذا شىء ينبغى على الروس أن يضعوه في اعتبارهم عند الحكم على الطابع اليهودى. حسناً.. نحن نضع ذلك في الاعتبار. كم من مرة ارتفعت أصوات المثقفين الروس تدافع عن اليهود؟ لكن... هل يضع اليهود في اعتبارهم حين يتهمون الروس ويجأرون بالشكوى من قرون الملاحقات والاضطهاد أن الشعب الروسي هو الآخر قد عاني منً الملاحقات والاضطهادات ذاتها؟ هل يمكن الزعم بأن الشعب الروسى عانى في تاريخه أقل مما عاناه اليهود؟ ألم يتحد اليهودي في الأغلب الأعم مع الظالمين؟ بل كثيراً ما تحول هو نفسه إلى الظالم بعينه؟ لقد حدث كل ذلك بالفعل. إنه التاريخ. إنها الحقائق التاريخية. ومع ذلك فإننا لم نسمع أبدا أن اليهود قد

ندموا على ما ارتكبوه ، لكنهم في الوقت ذاته لا يكفون عن اتهام الروس بأنهم لا يحبونهم.

كفى . يكفى كل ذلك.. فلتكن الوحدة الروحية الكاملة بين جميع الأقوام. ولتقم المساواة في جميع الحقوق. لذلك أرجو من المعارضين والذين يكتبون لى من اليهود أن يتخذوا منا نحن الروس موقفاً أكثر عدالة. وإذا كان استعلاؤهم على الشعب الروسى، وتقززهم منه يعودان فقط إلى "التحفظ" وبعض الرواسب التاريخية، وإذا كان ذلك الاستعلاء والتقزز لا يكمن في أعماق قانونهم ونظامهم الخاص، فإننا نأمل أن يتلاشى ذلك سريعا. ولنتحد في روح واحدة وأخوة كاملة، ولنتبادل المساعدات في سبيل القضية العظيمة لخدمة أرضنا ووطننا ودولتنا... ولتخف الاتهامات المتبادلة، ولينطفئ هذا الحماس الدائم للاتهامات التى تعوق الرؤية الواضحة للأشياء. وإنى أقطع فيما يتعلق بالشعب الروسى أنه يرحب بأخوة اليهود بغض النظر عن اختلاف الدين، وباحترام كامل منه لحقيقة هذا الاختلاف. لكن من الضرورى لإقامة هذه الأخوة، بل لإقامة الأخوة الكاملة من جهد يبذله الجانبان. فليقم اليهودى بالتعبير للروس عن بعض المشاعر الأخوية حتى يشجعه على الإقبال على نفس الشىء.

وإنى لأعلم أن بوسعنا أن نجد بين الشعب اليهودى اليوم عدداً كبيراً من الأشخاص المحبين للإنسانية الذين يبحثون عن مواطن سوء التفاهم للقيام بإزالتها. لن أسكت عن قول ذلك وتكراره: إنى لأرجو أن تتسع حقوق اليهود اتساعاً كبيراً وعلى الأقل بقدر الإمكان، وبقدر ما يثبت اليهود قدرتهم على الاستفادة بهذه الحقوق بدون أن يلحقوا أضراراً بالسكان الأصليين. إنى أرجو ذلك كى لا تفتر معنويات بعض أولئك النافعين من اليهود والمحبين للإنسانية، ولإضعاف تحفظاتهم إلى حد ما، وكى يسهل لهم أن يشرعوا في العمل.

وبوسعنا من جانبنا نحن الروس أن نقطع المزيد من الخطوات إلى الأمام. وهنا يمكن أن تتلخص المسألة فقط فيما يلى: هل سوف يتسنى لأولئك الطيبين من اليهود أن يقوموا بأعمال كثيرة؟ وإلى أى حد هم قادرون على إقامة علاقة مع القضية الرائعة الجديدة، أي قضية الاندماج الأخوى الحقيقى مع قوم يختلفون معهم في الدين والدم؟

هوامش

(1) كلمة "چيد" تطلق على اليهود في روسيا للتحقير من شأنهم.
المترجم .
(2) يقصد الكاتب قانون إلغاء الاسترقاق الذي أصدره القيصر ألكسندر الثاني عام 1861

* * *

سنوات الشعر والموت

علمتنا سنوات الدراسة في موسكو ونحن طلاب أن هناك كتبا مسموح بها وأخرى ممنوعة. وكانت ثمة سوق سوداء للكتب الأدبية المحظورة التي تباع سرا وبالهمس. أولئك كانوا الأدباء والشعراء غير المرضي عنهم لسبب أو لآخر من السلطات السوفيتية. وكانت القائمة طويلة تضم أسماء مثل الشاعرة آنا أخماتوفا وزوجها نيكولاى جوميليوف الشاعر الذى قتل فى محاكمة صورية بتهمة ملفقة، والقاص العبقري أندريه بلاتونوف، والروائي المذهل ميخائيل بلجاكوف صاحب الرواية العبقرية "المعلم ومارجريتا"، انتهاء بالكاتب الساخر ميخائيل زوشنكو الذي كان يسخر بلا هوادة بكل المظاهر السلبية فأجبرته الدولة على الصمت بعد أن شنت حملتها على المبدعين والعلماء عام 1937 فكف عن الكتابة وانكسرت روح السخرية مفسحة المجال للمرارة العميقة فحسب. وكانت الدولة تطبع من أعمال أولئك الأدباء عددا محدودا من النسخ تباع بالعملة الصعبة للأجانب في الأسواق الحرة لكي لا يقال إن الدولة تصادر الأدب. بينما كانت تطبع من كتب سكرتير الحزب ليونيد بريجنييف ملايين النسخ، بل وتمنحه جائزة الدولة في الآداب عما كتبه، وبعبارة أدق عما لم يكتبه، إذ كان الجميع يعلمون أن هناك من يؤلفون له.

من بين الأدباء المحظورين كانت الشاعرة الروسية الكبيرة مارينا تسفيتايفا التي دخلت إلى حجرة منعزلة في بيتها في 31 أغسطس 1941 وأنهت حياتها بأنشوطة حول عنقها وهي في التاسعة والأربعين، زوجة وأما لطفلين، وشاعرة ملء السمع والبصر، بعد أن أشرقت في مطلع القرن العشرين مع زميلتها "آنا أخماتوفا" لتصبحا شمسين منيرتين من قصائد لاهبة ومصير فاجع.

ولدت مارينا في 8 أكتوبر 1892 بموسكو. كان والدها أستاذا جامعيا ووالدتها عازفة بيان. وتبدت موهبة الشاعرة في محاولات ساذجة مبكرة منذ أن كانت في السادسة من عمرها. عام 1910 نشرت أول ديوان بعنوان "دفتر مسائي".

بعد عامين ظهر ديوانها الثاني "عمود النور السحري". وتوالت دواوينها حتى بلغت سبعة عشر ديوانا غير المسرحيات والمقالات النقدية والمذكرات. ولم تقع مارينا خلال رحلتها الأدبية الطويلة الثرية في فخ "الأدب النسوي" الذي تجنبته كل أديبة كبيرة.

عاشت تسفيتايفا عهد القيصر، ومرحلة ثورة 1905، وعاصفة ثورة 1917، وبعدها الحرب الأهلية، ثم اعتصار الثورة بقبضة البطش الستاليني.

ورأت بعينيها كيف يحترق الشعراء والأدباء من أبناء جيلها مثل "آنا آخماتوفا" التي أُعدم زوجها الشاعر جوميلوف عام 1921، واعتقل ابنها، ونُكل بها. وعاصرت تسفيتايفا في ديسمبر 1925 الانتحار الغامض للشاعر العظيم سيرجي يسينين الذي وجدوه معلقا بأنشوطة في حجرة بفندق "انترناشيونال" وقد ترك قصيدة يقول فيها "ليس ابتكاراً أن تموت في هذه الحياة، وأن تحيا ليس أكثر ابتكاراً"! وكانت قصة انتحاره من الغموض بحيث أعيد التحقيق فيها عدة مرات. ولم تنقض خمس سنوات حتى عايشت مارينا انتحار مايكوفسكي في أبريل 1930 برصاصة، بعد أن ترك رسالة يقول فيها "تحطم زورق الحب على صخور الحياة". علما بأن مايكوفسكي كان يعتبر نفسه شاعر الطبقة العاملة والثورة. وقد حكت "آنا أخماتوفا" عن مايكوفسكي أنه كان يحب العبث بالمسدس. يجلس والمسدس في يده، يظل يديره إلى أن يقولوا له "أبعدوا المسدس. إنه ليس لعبة. لماذا تحتفظ به؟". وكان مايكوفسكي يجيبهم "ربما يكون نافعا"!. اتسع قلب تسفيتايفا للألم، مرة بعد أخرى حتى كأنما أصبح دفترا يسجلون فيه هروب الشعر إلى الموت ورحيل الأمل. هكذا قدر لها أن تعاني موت الشاعر أوسيب ماندلشتام عام 1938 مريضا في معسكر اعتقال، ثم محاكمة المخرج مائير هولد وإعدامه رميا بالرصاص عام 1940! وليس أشد قسوة – كما يقول المغني الداغستاني أنور عليموف- من البسالة المحكوم عليها بالموت. وظل الشعر لدي مارينا منفذا وحيدا إلى النور، فكان عليها أن تكتب قصائدها في الحريق. ترحل إلى باريس عام 1922، وتصف حياة الغربة هناك قائلة: "من سوء حظي أنني لست مغتربة في الغربة. أنا كما أنا، كل روحي وكياني مجتمعا يمضي إلى هناك، ويأتي من هناك. لا أحد يمكنه أن يتخيل الفقر الذي نعيش فيه في باريس. دخلي الوحيد يأتيني عن طريق الكتابة. أما زوجي فإنه مريض ليس بمقدوره أن يعمل. ابنتي تكسب قروشا زهيدة بما تحوكه من قبعات. وعندي ابني المعتل، ونحن جميعا نعيش على تلك القروش. بعبارة أخرى فإننا نموت من الجوع ببطء".

بعد ستة أعوام من الهجرة نشرت آخر ديوان لها باسم "بعد روسيا". عام 1939 لا يعود بوسع الشاعرة الروسية احتمال وطأة الغربة أكثر مما احتملت، فتقرر العودة إلى روسيا، لتشهد مرة أخرى عنفوان البطش الستاليني بالأدباء وبالحرية، وفظاظة البيروقراطية الحاكمة. تحاول أن تتشبث بالأمل في أن شعبها القوي سيجتاز كل ذلك إلى عالم جديد أكثر إنسانية، فتكتب في إحدى قصائدها تقول:

ستحيا يا شعبي مهما كان
يحرسك الله ما حييت
من وهبك قلبا حلوا كالرمان
ومنحك صدرا كالجرانيت..
فلتزدهر أيها الإنسان
الذي قُدَّ من الصخور
بقلبك الحار كالرمان
النقي مثل البلور

الشاعرة التي خايلها الأمل أن شعبها قادر على اجتياز المحنة، لم تستطع هي ذاتها أن تتحمل وطأة الثورة التي ابتلعت الشعراء فأنهت حياتها منتحرة.

تركت مارينا ثلاث رسائل، واحدة للشاعر "نيكولاي أوسييف"، وأخرى لمن سيتولى دفنها، وثالثة لإبنها جريجوري تقول له فيها: "عزيزي، اغفر لي، لكن الوضع كان سيصبح أسوأ لو استمرت هذه الحال. إنني مريضة بشدة حتى أنني لم أعد أنا. اعلم أنني أحبك بقوة. وافهم أنه لم يكن بوسعي أن أعيش أكثر من ذلك. انقل لبابا و ل "آليي" إذا رأيتها أنني أحببتهما حتى آخر رمق. ووضح لهما أنني فقط بلغت طريقا مسدودا".

هكذا رحلت الشاعرة، أما الطريق المسدود، فلم يكن مأزقها الخاص، أو معاناتها الذاتية، بل كان وضعا تاريخيا تكثف البطش فيه وانكسار الآمال كقطرات الماء على جدران روحها.

خلال إقامة مارينا تسفيتايفا في باريس كان الشاعر والأديب النمساوي المعروف راينر ماريا ريلكة يراسلها، فكتب لها ذات مرة يواسيها في غربتها قائلا: "نحن الأعماق العائدة إلى السماء يا مارينا".

وبالرغم من عذابات الأدباء فقد محا الزمن أسماء الطغاة وبقيت القصائد الممنوعة. ومازال الناس يرددون مع سيرجي يسينين:

ضوء غامر ينبعث من القمر
وينسكب على سطحنا مباشرة
وفي مكان ما بعيدا
أسمع غناء عندليب!

ذات يوم قال أبو طالب غفوروف وهو شاعر داغستانى كبير: "لا تطلق رصاص مسدسك على الماضى، لكى لا يفتح المستقبل عليك نيران مدافعه". وها هو المستقبل يفتح ذراعيه للأدباء والكتاب ويفتح نيران مدافعه على خصوم الحرية وأحلام الشعر.

* * *

ما هو الفن؟

قال الكاتب الفرنسى الكبير أناتول فرانس عن ليف تولستوى: "إننا نحنى رؤوسنا أمام تولستوى الذى يفوح منه عطر مملكة الجمال الفكرى على الإنسانية جمعاء". وقال عنه الكاتب الألماني المعروف توماس مان: "إن قوة فن تولستوى فوق أية مقارنة". لقد علا إبداع تولستوى الأدبى ليغدو قمة من قمم الأدب الواقعى الكلاسيكى بفضل موهبته المذهلة، وإدراكه لدور الفنان الذى لخصه على النحو التالى" :إن الفنان، فنان فقط لأنه يرى المواد لا كما يرغب في أن يراها، بل كما هى في الأصل". ولد تولستوى عام 1828، وواصل الكتابة لفترة تزيد عن نصف القرن، وبعد وفاته عام 1910 كتب عنه لينين عدة مقالات يقول في واحدة منها: "لقد توفى تولستوى واختفت روسيا ما قبل الثورة، التى عبر هذا الفنان العبقرى،

عن ضعفها وقوتها في فلسفته، وصورهما في مؤلفاته، لكن في تراثه أشياء لم تذهب مع الماضى بل بقيت للمستقبل".

وقد بقي الكثير من عبقرية تولستوى، إلا أن أهم ما يجب النظر إليه والتمعن فيه هو منهج تولستوى الواقعى، وفهمه للفن، ودور الفن. وهذا المقال الذي لم يترجم من قبل يكشف بوضوح رؤية ذلك الفنان العبقرى لماهية الفن. وحين يفرغ القارئ من مطالعة هذا المقال سيضع يده على "ماهية الفن" التى خلقت "الحرب والسلام"، و"آنا كارنينا"، وغيرها من روائع الروائى الكبير.

في مقاله هذا يهدم تولستوي بوضوح الأسس التى تقوم عليها النظريات التى تعتبر أن قوة الفن تكمن في جماله فحسب، وأن دور الفن هو مجرد "الإمتاع"، ويقدم تصورا عميقا للفن باعتباره ضرورة رافقت التاريخ البشرى كله، ووسيلة للتواصل والتعارف الروحي. هي المرة الأولى التي يترجم فيها هذا المقال إلى العربية.

ما هو الفن ؟

ما هو "هذا الفن" الذى يعد هاماً وضرورياً للبشرية إلى هذه الدرجة؟ بحيث يمكن لأجله التضحية ليس فقط بجهد الإنسان وعمله وحياته، بل وبكل ما يملك؟ ما هو الفن؟ ما هذا؟! أتسأل ما هو الفن؟! الفن هو المعمار، النحت، الرسم، الموسيقى، الشعر بكل أنواعه. هكذا سيجيبك الإنسان "المتوسط الثقافة" الذى يحب الفن، بل وربما تكون هذه إجابة الفنان نفسه، الذى يفترض أن القضية التى يتحدث عنها مسألة واضحة تماماً، وأن كل الناس يفهمونها "هكذا" على نحو واحد.

في هذه الحالة أسأله: لكننا نرى في المعمار أبنية بسيطة لا يمكن اعتبارها عملاً فنياً. أضف إلى ذلك أن هناك أبنية تدعى أنها من فن المعمار على الرغم من كونها أبنية قبيحة غير موفقة. لهذا لا يمكن لأحد أن يقر بأنها تنتسب إلى الفن.

فما الذى يتميز به موضوع الفن؟ هذا السؤال ينطبق أيضاً، بالضبط، على النحت، والموسيقى، والشعر. والحقيقة أن الفن بكل أنواعه، يقع بين حدين. فالفائدة العملية تحد الفن من ناحية. من ناحية أخرى تحده المحاولات الفاشلة فنياً. كيف نستخلص الفن من بين هذين الحدين؟. حتى هذا السؤال، لن يربك الإنسان المتوسط الثقافة أو الفنان الذى لم يدرس بتعمق علم الجمال. وسيبدو له أن تلك قضية محلولة من زمن بعيد ومعروفة تماما للجميع. وسوف يجيبك هذا الإنسان المتوسط الثقافة بقوله: "الفن هو النشاط الذى يُفصح عن الجمال". في هذه الحالة أسأله: "حسناً... لو أن ذلك هو جوهر الفن، فهل تعتبر الباليه، والأوبريت أيضاً من الفنون؟". وسيرد عليك الإنسان المتوسط الثقافة بالرغم من الشك الذى يساوره: "نعم. الباليه الممتع والأوبريت الجميلة فن أيضاً، بقدر ما يبرزان الجمال".

الآن، لا داعى ـ أكثر من ذلك ـ لأن تسأل هذا الإنسان المتوسط عما يميز" الباليه الممتع" أو"الأوبريت الجميلة" عن "الباليه غير الممتع" أو"الأوبريت غير الجميلة"، ذلك أن الإجابة هذه المرة ستكون صعبة عليه بالتأكيد. لكن اسأل نفس الإنسان: هل يُعد من الفن نشاط مصمم الأزياء،

والحلاق، ومزين وجوه النساء في الباليه والأوبريت، وكذلك الخياط (الترزى)، والطاهى، ومن يمزج العطور؟. فى أغلب الحالات سينفى أخونا إياه أن نشاط الخياط والحلاق ومصمم الأزياء والطاهى يدخل في نطاق الفن. وهنا يخطئ الإنسان المتوسط الثقافة، بالتحديد لأنه "إنسان متوسط" وليس مختصا ولم يشغل نفسه بقضايا علم الجمال.

إذن فإن إدراك الفن باعتباره "تجلى الجمال" أمر ليس بهذه البساطة التى نظنها، خاصة الآن، بعد أن صار أساتذة علم الجمال الجدد، يدرجون في "مفهوم الجمال" حواسنا من لمس وتذوق وشم.

لكن هذا الإنسان، إما أنه لا يدرى، أو أنه لا يريد أن يعرف. فهو مقتنع تمام الاقتناع بأن كافة قضايا الفن يمكن حسمها بوضوح وبساطة بالقول بأن "الجمال هو مضمون الفن". لكن... ما هو هذا "الجمال"؟ الذى يُعد ـ حسب رأيه ـ مضمون الفن؟ ما هو هذا الجمال وكيف نحدده؟

يحدث في معظم الحالات، أنه كلما كان مفهوم كلمة ما مبهماً وغير واضح، زادت ثقة الناس واعتدادهم وهم يرددون تلك الكلمة، متخذين ـ أثناء ذلك ـ هيئة الشخص العالم بأن المقصود بها أمر واضح وبسيط إلى درجة أنه لا داعى للحديث حول ما تعنيه الكلمة بالفعل! فمن المفترض بداهة أن مفهوم كلمة "الجمال" معروف للجميع. هذا على الرغم من أن مفهوم هذه الكلمة مازال غير معروف، بل وما يزال تحديده حتى الآن من القضايا المفتوحة بلا حدود لمختلف الاجتهادات. ومع كل مؤلف في علم الجمال، تُحل هذه القضية بطريقة جديدة على الرغم من أنه قد مرت مائة وخمسون عاماً منذ أن تأسس علم الجمال (من سنة 1750) بفضل "باوم جارتن"، وعلى الرغم من صدور جبال من الكتب التى ألفها في ذلك الموضوع العلماء والأساتذة المختصون والمفكرون الذين اتسمت دراستهم بالعمق.

بلغتنا الروسية، لا تعني كلمة "جمال" لدينا إلا ما يستهوى ويُعجب نواظرنا فحسب. مع أننا ـ في السنوات الأخيرة- شرعنا نقول: "تصرف وسلوك غير جميل" وأيضاً: "موسيقى جميلة". لكن ذلك ليس من صميم اللغة الروسية. فالإنسان الروسى الذى ينتمى لعامة الشعب، وليس له إلمام باللغات الأجنبية، لن يفهمك إذا قلت له: " إن الشخص الذى أعطى شخصا آخر سرواله الوحيد والأخير، قد سلك على نحو "جميل"، أو ما شابه ذلك، كأن تقول له: "إن الرجل الذى خدع صديقه قد سلك بشكل "غير جميل"، أو إذا قلت له: "هذه الأغنية جميلة". في لغتنا الروسية يمكن للسلوك أن يكون "طيباً" أو " صالحاً"، أو"شريراً"، أو "خبيثاً". كما أن الموسيقى يمكن أن تكون "عذبة مبهجة"، أو "حسنة"، أو "غير عذبة"، أو"ليست حسنة". لكن لا وجود لمثل هذه التعبيرات "موسيقى جميلة" أو "غير جميلة".

الجمال في لغتنا صفة يمكن أن تنطبق على الإنسان، الحصان، المنزل، المنظر، الحركة، أما فيما يتعلق بالسلوك، والأفكار، والناس، والموسيقى، فإننا ـ إذا أعجبنا شىء من ذلك ـ نقول إنه شىء "صالح"، فإن لم يعجبنا قلنا "إنه خبيث" أو "طالح". لكننا نطلق كلمة "جميل" فقط على ما يَسُر أبصارنا. وهكذا، فإن كلمة "صالح" ، و "جيد" تتضمن مفهوم "الجمال". بينما عكس ذلك غير وارد: فمفهوم "الجميل" لا يحتوى على مفهوم" الصالح". فإذا تكلمنا عن شىء "جيد"، انطلاقاً من شكله الخارجى، فإننا

نعني بذلك أن ذلك الشىء "جميل". أما لو قلنا: "جميل" فإن ذلك لا يعنى على الإطلاق أن الشىء المحدد "جيد، أو صالح".

إن ملاحظة المعنى الذى اتسمت به في لغتنا كلمة: "جمال"، و"جميل"، بل وملاحظة نفس الظاهرة في لغات الشعوب التى أنشأت علم الجمال، يكشف عن المعنى الخاص الذى ضمنته تلك الشعوب كلمة "الجمال"، فقد تضمن "الجمال" عندها بالتحديد معنى: الصالح، الجيد، النافع[1].

والآن، ما هو جوهر ذلك المعنى؟ أي ما هو "الجمال" كما تفهمه الشعوب الأوربية؟ ما هو مفهوم "الجمال" في واقع الأمر؟ هذا المفهوم الذى يقبض عليه الناس بشدة لتحديد ما هو الفن ؟. نحن نطلق كلمة "الجمال" بالمعنى الذاتى على كل ما يهبنا لذة أو متعة من صنوف المتع المعروفة. وبالمعنى الموضوعى، فإننا نسمى بـ"الجمال" شيئاً ما، أشبه ما يكون بالمطلق الكامل، شيئاً يقع خارج ذواتنا. ولكن... إذا كنا نتعرف (خارج ذواتنا) إلى ذلك "المطلق والكامل"، ونقر بوجوده، لأننا نتلقى ـ بفضل تجلى ذلك المطلق الكامل ـ نوعاً محدداً من المتعة، فإن التحديد الموضوعى للجمال في هذه الحالة، لن يكون سوى تعبير عن الذات. والحقيقة أن إدراك "الجمال" بالمعنى الأول أو الثانى، يقودنا إلى الانطلاق من "المتعة المحددة التى يهبنا إياها، أى أننا نعتبر أن ما يعجبنا هو" الجمال"، الذى لا يشترط أن يحرك فينا شوقاً لشىء ما.

لقد تعددت محاولات تحديد "الجمال المطلق في حد ذاته"، بدءاً من القول بأنه: "محاكاة الطبيعة"، و"التوافق والتلاؤم"، و"ترتيب الأجزاء على نحو متماثل")السيمترية)، و"التناسق والانسجام"، و"وحدة التنوع"، إلى آخر كل ذلك. والحق أن كل تلك التفسيرات، إما أنها لا تحدد شيئاً على الإطلاق، أو أنها تلتقط وتحدد فقط بعض الملامح المميزة لبعض من حالات الإبداع الفنى، ومن ثم فإنها لا تشمل كافة جوانب ما اعتبره الناس دوماً، وما يعتبرونه الآن "الفن".

ليس هناك تحديد موضوعى للجمال، والتحديدات القائمة الآن، الميتافيزيقية، أو المستقاة من التجربة، تفضى كلها إلى تحديد ذاتى لماهية الجمال، وعلاوة على ذلك فمن الغريب القول بأن الفن هو الشكل الذى يتجلى فيه الجمال. (فالجمال هو ما يسرنا ويعجبنا دون أن يحرك فينا الشوق لشىء ما)... ويقوم علم الجمال في وقتنا الراهن على الآتى : مادمنا قد اعترفنا لإبداع فنى ما، بأنه ممتاز (لأنه يعجبنا) فإن علينا أن ننشئ نظرية للفن يجرى وفقها اعتبار كل إبداع فنى يُعجب وسطاً محدداً من الناس فناً. هكذا تنشأ قاعدة فنية، تعتبر الإبداع الفنى الذى يلاقى إعجاب الناس فناً: (فيدياس، سوفوكل، هوميروس، رافائيل، باخ، بيتهوفن، دانتى، شكسبير، جوته، إلخ)، ومن ثم فلابد لتلك القاعدة الفنية، وللحكم الجمالى أن يتحدد على نحو معين بحيث يتسع لكل ذلك الإبداع الفنى. إن الحكم على "أهلية" ومغزى الفن، يتم انطلاقاً من "مطابقة الفن أو عدم مطابقته" للقواعد الفنية التى وضعناها، القواعد التى تصادفنا كثيراً في علم الجمال. هذا على حين أنه من المفترض لنشاط فكرى (علم الجمال) يطلق على نفسه صفة "العلم" أن يقوم بتحديد خواص وقوانين الفن، ومفهوم "الجمال" (إذا كان الجمال هو مضمون الفن)، وخاصية "التذوق" وأهميته (إذا كان التذوق هو مفتاح الإجابة عن "ماهية الفن")، وبعد كل ذلك، وعلى

أساس من تلك القوانين، نقر بأن الفن هو الإبداع الذى يندرج تحت تلك القوانين، وما لا يندرج تحتها ننحيه خارج دائرة الفن.

أما نظرية الفن، القائمة على "الجمال"، والتى تطرح نفسها في ملامح جمالية مبهمة، فإنها لا تزيد في الحقيقة عن كونها اعترافا بأن الفن الجيد، هو ما أعجب، وما يعجب الناس، أى ما أعجب ويعجب وسطاً محدداً من الناس.

والحق أنه لتحديد أى من الأنشطة الإنسانية، لتحديد أهمية هذا النشاط ومغزاه، لابد لنا أن نفهم دلالة ومعنى ذلك النشاط. لهذا، لابد قبل كل شىء، من تأمل وتفحص ذلك النشاط في حد ذاته، في ارتباطه بأسبابه، ونتائجه، وليس فقط من زاوية المتعة التى نتلقاها من ذلك النشاط.

فنحن، إذا اعتمدنا فكرة أن هدف أى نشاط إنسانى ينحصر فقط في "إمتاعنا"، وبناء على هذه المتعة حددنا "ذلك النشاط"، فلا شك أن تحديدنا ذاك سيكون تحديداً باطلاً . وهذا هو بالضبط ما تم بصدد تحديد "الفن".

والآن، إذا تناولنا موضوع الطعام والأكل على سبيل المثال، فهل يتصور أحد أن تخطر بعقل ما فكرة أن أهمية الطعام تكمن في المتعة التى نحسها ونحن نلتهمه؟!

يعلم كل إنسان، أن إرضاء أذواقنا، لا يمكن أن يكون أساساً لتحديد أهمية الطعام. لهذا، لا يمكننا أن نفترض، بل وليس لدينا أى حق لكى نفترض أن طعامنا الذى اعتدنا عليه (الجبن السويسرى والنبيذ)، هو أفضل طعام لأنه يعجبنا نحن!

أيضاً، بالنسبة للجمال، أو ما يحوز على إعجابنا، فإن هذا المفهوم لا يمكن أن يصلح أساساً لتحديد ماهية الفن، كما أن مجموعة من المواضيع التى تسرنا لا يمكن أن تشكل نموذجاً لما يجب أن يكون عليه الفن.

إن التصور القائل بأن هدف ومغزى الفن يكمن فى المتعة التى يوفرها لنا، يشبه فكرة الناس (المتوحشين مثلاً) الذين يقفون عند أدنى درجات السلم الحضارى، حين يتصورون أن هدف ومغزى الطعام يكمن بالذات فى المتعة التى نحسها ونحن نتناوله. ولكى نصل إلى تحديد دقيق للفن، يجب علينا أولاً أن نكف عن النظر إليه بصفته وسيلة للمتعة. وأن ننظر إليه بصفته شرطاً من شروط الحياة الإنسانية. هذه الرؤية للفن، ستجعلنا ندرك أن الفن إحدى وسائل الاتصال بين الناس.

إن كل إبداع فنى يضع المتلقى في علاقة تواصل محددة مع العمل الفنى، ومع أولئك الذين (في نفس الوقت، أو قبله، أو بعده) يتلقون الانطباع الفنى ذاته. وبالضبط، كما أن الكلمة تحمل الفكرة وتنقل الخبرة للناس، بصفتها وسيلة لتوحيد البشر، فإن الفن يقوم بنفس الدور. وتكمن خاصية الفن كوسيلة للاتصال بين البشر فى أن الناس ينقلون لبعضهم البعض ـ عبر الفن ـ عالمهم الروحى، ومشاعرهم. على حين أنه ـ فى اتصال الناس عبر الكلمة ـ يقوم إنسان واحد بنقل أفكاره لإنسان آخر.

إن النشاط الفنى يعتمد أساساً على أن الإنسان الذى يتلقى بالسمع أو البصر تعبيراً عن شعور إنسان آخر، قادر على معاناة نفس الشعور، الذى عبر عنه الآخر. وسأضرب مثلاً بسيطاً: إذا ابتسم شخص، يحس الإنسان الآخر بالبهجة. وإذا بكى شخص، فإن الإنسان الذى يسمع بكاءه يصبح حزيناً. إذا انفعل إنسان وسلك على نحو عصبى فإن هذه الحالة ستنتقل إلى من

يتطلع إليه. وإذا أشاع إنسان بحركاته و نبرة صوته حالة من النشاط ، أو على العكس من ذلك، إذا أشاع الخمول والكآبة، فإن هذه الحالة ستنتقل وتسرى إلى من حوله. وإذا شرع إنسان فى الصراخ والتأوه معبراً عن آلامه فإن الشعور بتلك الآلام ينتقل إلى الآخرين. وإذا أخذ إنسان يفصح عن شعوره بالانبهار، أو الإجلال، أو الرعب، أو راح يكشف عن احترامه لمواضيع محددة، أو تقديره لأشخاص بعينهم أو ظواهر معينة، فإن عدوى تلك المشاعر تنتقل إلى الآخرين، فيحسون مشاعر الانبهار، والإجلال، والرعب، والاحترام للمواضيع، والأشخاص، والظواهر ذاتها.

إن النشاط الفنى، يقوم على قدرة البشر على استقبال وتلقى عدوى مشاعر الآخرين. ومع ذلك، إذا استطاع إنسان أن يُعدى إنساناً آخر، أو أناساً آخرين على نحو مباشر، سواء بهيئته أو بالأصوات التى يصدرها، أو استطاع أن يرغم إنساناً آخر على التثاؤب (فى الوقت نفسه الذى يحس فيه بحاجته إلى التثاؤب)، أو استطاع (وهو يبتسم لسبب ما، أو يبكى، أو يعانى) أن ينقل تلك المشاعر إلى الآخرين، فإن ذلك لا يُعد فناً بعد.

ذلك أن الفن يبدأ فقط، حينما ينقل الإنسان مشاعره التى يعانيها إلى الآخرين، بهدف محدد، حينما يستحضر تلك المشاعر ـ من جديد ـ ثم يعبر عنها بإشارات خارجية معينة.

وإليكم، أبسط مثال يوضح ما أقصده: فلنفترض أن هناك صبياً يحس بالرعب لأنه صادف ذئبا، وأن ذلك الصبى يقص ما جرى له مع الذئب، وأنه لكى ينقل إلى الآخرين الذعر الذى أحسه، راح يصور نفسه، وحالته عند مواجهته للذئب، فوصف الغابة التى كان بها وسيره المطمئن ثم هيئة الذئب، وتوثبه، والمسافة التى كانت تفصل بينهما، إلى آخر كل ذلك. فإذا كان الصبى ـ أثناء قصته تلك كلها ـ يعانى مرة أخرى الذعر الذى أحسه، ونَقل عدوى الذعر إلى مستمعيه وأجبرهم على معايشة ذلك الشعور، فإن ذلك "فن". أما إذا كان الصبى لم ير على الإطلاق ذلك الذئب المزعوم، وكل ما في الأمر أنه غالباً ما ارتعب لاحتمال وقوع مثل هذه الحادثة، وإذا كان الصبى قد رغب في عدوى الآخرين بالشعور الذى أحسه فابتدع تلك المواجهة مع الذئب وقصها هكذا، بحيث أن قصته أثارت في مستمعيه" شعوره هو" حين تخيل لقاءه بالذئب، فإن هذا أيضاً "فن". على ذلك النحو يتمثل "الفن" أيضاً: حين يعايش الإنسان في الخيال أو في الواقع رعب المخاوف، أو روعة المتعة، فيعبر عن ذلك على لوحة من قماش، أو يستنطق المرمر تلك المشاعر، بحيث يُعدى الآخرين بها. ومن الفن أيضاً، إذا أحس الإنسان بشعور محدد، أو تلبسه، كأن يتقمص حالة المرح، أو البهجة، الحزن، أو القنوط، النشاط، أو الكآبة، ثم يصور لنا الكيفية التى ينتقل بها من شعور إلى آخر، معبراً بالأصوات عن تلك المشاعر، معبراً هكذا بحيث تنتقل عدوى تلك المشاعر إلى المستمعين، فيحسون بها كما أحسها هو.

إن المشاعر الإنسانية غنية ومتنوعة بلا حدود: المشاعر المتأججة، والضعيفة، العظيمة، والمنسحقة، المشاعر الحمقاء، والطيبة، ولو أن هذه المشاعر تمكنت من عدوى القارئ، أو المشاهد، أو المستمع، فإنها تشكل مادة وموضوعاً للفن. إن الإحساس بإنكار الذات، أو الاستكانة للقدر، أو المشيئة الإلهية، وكل ما تنقله الدراما؛ أو انبهار العاشقين الذى تصفه

الرواية؛ أو الشعور بالرغبة العنيفة الذى تصوره اللوحة؛ أو الإحساس بالنشاط والتأهب الذى تعدينا به مارشات الموسيقى الاحتفالية؛ أو الشعور الذى يتسرب إلينا من الرقص أو الفكاهة وليدة النكتة المضحكة؛ أو الشعور بالهدوء والراحة الذى ينتقل إلينا من منظر مسائى؛ أو من أغانى المهد، كل ذلك هو الفن.

إن الفن هو قدرة المؤلف على عدوى المُشاهد أو المستمع بما يحسه المؤلف. إن الإبداع الفنى يكمن في قدرة المؤلف على أن يستدعى إلى نفسه شعوراً مر به عن طريق الحركة المباشرة، أو الخطوط، الألوان، الأصوات، النماذج، الصور الفنية التى تتخلق بالكلمات، ونقل هذا الشعور بحيث يشعر الآخرون بنفس الشعور. الفن هو هذا النشاط الإبداعى الإنسانى، المتمثل في أن إنساناً فرداً، ينقل بوعى، وبإشارات خارجية، المشاعر التى أحسها أو يحسها للآخرين، بحيث يشعرون بنفس المشاعر.

ليس الفن إذن، كما يقول الميتافيزيقيون، تجلى أفكار مبهمة من نوع أو آخر، وليس الفن كما يقولون تجلى الجمال. الفن أيضاً ليس لعبة، كما يحلو لعلماء علم الجمال الفسيولوچيين أو يرددوا، فالفن لديهم لعبة يسرب الإنسان خلالها طاقاته الزائدة. الفن أيضاً ليس تنفيساً عن الانفعالات بحركات خارجية، وليس متعة، الفن وسيلة للاتصال والتواصل بين البشر[2]، وسيلة تُوحدهم في نفس المشاعر ذاتها، وعبر هذه المشاعر. فالفن ضرورة للحياة، وللتقدم، لخير إنسان محدد، ولخير البشرية كلها.

وبفضل قدرة الإنسان على إدراك أفكار الآخرين المتبلورة في كلمات، بفضل هذه القدرة، يمكن لكل إنسان أن يتعرف إلى ما أنجزته البشرية من أجله في هذا المضمار، بل ويمكنه - في الوقت الحاضر- أن يشارك الآخرين النشاط الفكرى. وبفضل تلك القدرة يصبح بوسعه أن ينقل الأفكار التى استوعبها وأفكاره الخاصة التى ظهرت بفضل ما استوعبه. بوسعه أن ينقل كل ذلك إلى معاصريه، وإلى من يأتون من بعدهم. هذا هو الوضع بالضبط بالنسبة للفن. فبفضل قدرة الإنسان على تلقى عدوى مشاعر الآخرين، عبر الفن، يصبح متاحاً له ـ في مجال المشاعر ـ كل ما عانته البشرية من أحاسيس قبله، وتصبح متاحة له مشاعر المعاصرين له من البشر، بل والمشاعر التى مرت بها النفوس قبل آلاف الأعوام، كما يصبح بوسعه أن ينقل مشاعره إلى الآخرين.

ولو لم تتوفر للبشرية القدرة على استيعاب وتلقى كل تلك الأفكار التى ابتدعها الآخرون من قبل وانتقلت إلينا عبر الكلمات، ولو لم تتوفر للبشرية القدرة على نقل أفكارها إلى الآخرين، لكان الناس أشبه ما يكونوا بالوحوش. ولو لم تتوفر أيضاً قدرة الإنسان الثانية، على استقبال عدوى الفن، لكان من الصعوبة بمكان ألا يصبح البشر أكثر همجية، والأهم: أكثر تشتتاً وتبعثراً، يناصبون بعضهم البعض العداء والبغضاء.

لذلك، فإن للإبداع الفنى وللنشاط الفنى دوراً غاية في الأهمية، يماثل أهمية اللغة، ولذلك يتمتع الفن بقبول وانتشار مثل انتشار اللغة وذيوعها. وكما أن اللغة والكلمة تؤثر فينا، ليس فقط عبر المواعظ، والأحاديث، والكتب، بل وعبر كل تلك الحوارات التى ننقل خلالها خبرتنا وأفكارنا لبعضنا البعض، فإن الفن أيضاً (بالمعنى العام للفن) يتخلل حياتنا كلها، وينتظمها

بكافة جوانبها، لكننا نسمى، ظواهر الفن، فقط بعض ظواهره، نسميها "الفن" بالمعنى الضيق للكلمة. بالمعنى المتخصص.

لقد اعتدنا أن نفهم من كلمة "الفن" فقط ما نقرأه، أو نسمعه، أو نراه على منصة المسرح، أو في قاعات الحفلات الغنائية، أو في المعارض، أوالعمارة، والتماثيل، والشعر، والرواية.. لكن ذلك كله، ليس إلا قسطا، مجرد قسط صغير من ذلك الفن الواسع الذى نتعامل به مع بعضنا البعض في الحياة. ذلك أن الحياة الإنسانية بأكملها، ممتلئة، مترعة، بمختلف أنواع الإبداع الفنى من كل صنف، بدءاً من أغانى المهد، والنكات، والتقليد الكاريكاتورى، وزينة النساء، وتجميل البيوت، والملابس، وأدوات المنزل، حتى الطقوس الكنسية ومواكب الجنازات. كل ذلك نشاط فنى، وإبداع. ونحن لا نطلق كلمة "الفن" ـ بالمعنى الضيق للكلمة ـ على كافة أشكال النشاط الإبداعى الإنسانى الذى ينقل المشاعر إلى الآخرين، ولكننا نطلقها على جزء من كل هذا، جزء ، استخلصناه من الكل لسبب ما، ورأينا أنه يتمتع بأهمية خاصة.

لقد أضفى البشر دائماً أهمية خاصة، على ذلك الجزء من النشاط الفنى، الجزء الذى يعبر عن مشاعرهم وينقلها، واعتبروا ذلك الجزء الصغير من الفن، هو "الفن" بكل معانى هذه الكلمة. على هذا النحو رأى الأقدمون الفن، على هذا النحو رآه: سقراط، وأفلاطون، وأرسطوطاليس. وعلى هذا النحو أيضاً رأى الفن المسيحيون القدامى، ودعاة اليهودية، كذلك فهمه المسلمون[3]، بل وكل الشعوب المتدينة في عصرنا الحالى.

إن بعضاً من معلمى البشرية مثل أفلاطون في "جمهوريته"، والمسيحيين الأوائل، وقسماً من المسلمين المتشددين، والبوذيين، كانوا في الأغلب الأعم ينكرون أى فن. وقد اعتمدت نظرتهم تلك ـ عكس النظرة الشائعة الآن والتى ترى أن قيمة الفن تتحدد وفقاً لما يجلبه من متعة ـ اعتمدت على أن الفن ـ عكس الكلمة التى يمكننا ألا ننصت إليها ـ خطر للغاية، وتكمن خطورته بالتحديد في قدرته على عدوى البشر ضد إرادتهم، وأن ما ستفقده البشرية بمطاردة وتنحية الفن، أقل بكثير مما ستفقده إذا أطلقت الحرية لأى فن من أى نوع.

ولا شك في خطأ تلك النظرة التى أشرنا إليها أعلاه، لأن أصحاب تلك النظرة كانوا ينكرون ما لا يمكن إنكاره أى: إحدى الوسائل الضرورية للتواصل بين البشر، الوسيلة التى من دونها لم يكن للبشرية أن تحيا وتتطور. ومع ذلك، فإن النظرة الأخرى التى يعتنقها الناس في مجتمعنا الأوربى المتحضر، لا تقل خطأ عن نظرة القدماء التى تنكر الفن، فالناس في مجتمعنا، وعصرنا يقرون بكل فن مادام يستهدف الجمال، أى مادام يستهدف توفير المتعة للبشر.

فيما سبق من أزمنة، خشى القدماء أن تندرج في الفن المواضيع التى قد تُفسد الناس، وتدفعهم للفجور، لهذا حرموا كل فن، أياً كان. أما الآن فإن الناس في مجتمعنا المعاصر يخشون أن يفقدوا أية متعة يهبها لهم الفن، ولذلك يسعون لحمايته على إطلاقه مادام يوفر لهم المتعة. لكنى أعتقد أن هذا الضلال الأخير، أشد فظاظة من الضلال الأول، وأكثر خطراً وضرراً على البشرية.

ليف تولستوى

1897-1898

هوامش

1- في لغتنا العربية، تفسر معظم قواميس اللغة كلمة "جمال" على أنه: الحُسْن، والشىء الحسن، ضد السىء. كما أنه إذا حَسُنَ الشىء حُسنا، فإنه قد "جُمِلَ" أى صار جميلاً. فكلمة "جمال" بمعنى الحسن، تتضمن معنى الجودة، والصلاح، والنفع. وكلمة "الأدب" أوضح في ذلك المجال، فهى تتضمن : المعاقبة على الإساءة، والتقويم، وكذا "الأدب الفنى"، وكلمة: "ثقافة" المشتقة من "ثقف" الشىء أى أقام المعوج منه. ففى لغتنا أيضاً تتضمن كلمات: الأدب، الثقافة، الجمال، معنى: الشىء الصالح، والنافع. المترجم.

2- " الفن والحياة الاجتماعية" مقالة بليخانوف الشهيرة وفيها يحدد الفن تحديداً مقارباً لتولستوى، فيقول: "الفن وسيلة من وسائل التعاشر الروحى بين الناس". المترجم.

3- كان تولستوى ملماً بمختلف جوانب الدين الإسلامى، وثمة رسائل تبادلها مع الإمام محمد عبده تكشف عن تقدير متبادل بينهما، كما قام تولستوى بتقديم أحاديث مختارة للنبي (صلعم) بالروسية. المترجم .

* * *

مهزلة نجم ومأساة كاتب

ثمة مقولة شهيرة إن التاريخ يكرر نفسه مرة في شكل مأساة ومرة في شكل مهزلة. حدث ذلك معي في موسكو عام 1987، وكنا أنا وصديقة مصرية عزيزة نقطع الممر الرئيسي في بهو أكبر فنادق موسكو حين جذبتني فجأة من ذراعي وصاحت "مارسيلو ماسترويانى يا أحمد"!

نظرتُ حيث أرسلتْ بصرها فرأيت أمامي مباشرة شخصا طويل القامة رافع الرأس بزهو، مبتسما بسمة النجم المنير، ومن عنقه تدلى حتى الأرض تقريبا وشاح أحمر طويل على بالطو أصفر مفتوح. كررتْ هي "ماسترويانى يا أحمد"! . قلت لنفسي "إذن هذا هو نجم الشاشة العالمي بشحمه ولحمه!". همستْ الصديقة برجاء حار وبصرها مثبت على النجم العالمي "عاوزه أتصور معاه"!

كان ذلك في المؤتمر الذي بادر إليه ميخائيل جورباتشوف مبتدع سياسة إعادة البناء والشفافية ودعا إليه كل نجوم الشاشة وكبار المفكرين والأدباء والسياسيين من مختلف أنحاء العالم. كنتُ أعمل مراسلا صحفيا معتمدا لصحيفة عربية. وقالت لي تلك الصديقة العزيزة "لابد أن أحضر هذا المؤتمر بأية طريقة. لا يمكن أن أفوت فرصة رؤية كل أولئك النجوم". قلت لها: "طيب. سأستخرج لك تصريحا بدخول الفندق حيث يقيم الضيوف على أنك المصورة الصحفية للجريدة شرط أن تضعي كاميرا على كتفك". قالت "أنا أضع كاميرا ومعمل تحميض صور كمان، بس أشوف النجوم دول"!

وهكذا دخلنا إلى الفندق في اليوم الأول، ورأينا أمامنا صوفيا لورين مستريحة على أريكة وبيدها فنجان قهوة، وبعدها بعدة خطوات رأينا أمامنا – على حد قول الصديقة – ماسترويانى العظيم، ثم اخترقت أذني صيحة متكررة "ماسترويانى يا أحمد. عاوزه صورة معاه"!

على طريقة المصريين في الحسين والأزهر حين يلتقون أجنبيا تقدمت من الشخص الماسترويانى وقلت له بأدب وبإنجليزية موجزة "ممكن صورة عشان ناس مصريين معجبين؟". فهز رأسه موافقا بأريحية وهو مازال مبتسما، فوثبت صديقتي إلى جواره وشبكت ذراعها بذراعه مبتسمة والتقطت لهما الصورة التاريخية.

في وقت متأخر من تلك الليلة كانت الأخت المصرية قد اشترت طوابع بريد وخمسين مظروفا دست في كل منها صورتها مع النجم العالمي مرفقة بعدة كلمات لكل من تعرفه من الأهل والأصدقاء في القاهرة "صورتي مع ماسترويانى"! ولم تنم قبل أن تضع المظاريف في صناديق البريد لتتخذ طريقها بالنبأ السعيد إلى القاهرة.

صباح اليوم التالي عرجت عليها لأصطحبها إلى الفندق. وجدتها جالسة رأسها محني على الصحف التي غطت أنباء المؤتمر ساهمة مكسورة الخاطر. سألتها بدهشة "مالك؟". قالت بتنهيدة "الجدع اللي اتصورت معاه طلع مش ماسترويانى!". تعجبت "إزاي؟". قالت "الجرائد نشرت اليوم صورة ماسترويانى. مش هو. شوف!". ناولتني صحيفة. تأملت صورة ماسترويانى. الشخص الذي التقطنا الصورة معه كان به شبه خفيف من هذا لكنه بالقطع لم يكن الماسترويانى الأصلي الذي يُعتد به!

حاولت أن أهون عليها فصاحت "مش هو ماسترويانى مش مشكلة. بس مين بقى الأفاق الذي تكرم وسمح لنا بالتقاط صورة مع فخامته؟". قلت

"الرجل لم يقل إنه فلان. أنتِ التي افترضت هذا" . قالت "تلاقي القاهرة كلها بتضحك عليَّ دلوقت"! وأضافت بصوت خفيض "فضيحتي بقت بجلاجل"! وانفجرنا بالضحك نحن الاثنين.

مهزلة أن تتخيل إنسانا ما في صورة ويتضح أنها ليست حقيقته. وحين يتكرر ذلك الخطأ فإنه يأتي في المرة الثانية في شكل مأساة. هذا ما حدث في المؤتمر نفسه وعلى نحو مؤسف مع أديب كبير هو جنكيز أيتماتوف!

كان أيتماتوف أحد أشهر الأدباء السوفيت في العالم. وكان جديرا بتلك الشهرة بفضل رواياته البديعة الشامخة. التقيت به في موسكو لأول مرة عام 1978 عندما كنت أنهى رسالة الماجستير وكانت روايته الشهيرة "جميلة" جزءا أساسيا من بحثي في الأدب المقارن. التقيت به في منزله وكان لقاء سريعا تعرف خلاله على موضوع البحث بدون أن يتكلم تقريبا. وترك عندي انطباعا قويا بأنه إنسان يحيا تحت ضغوط كثيرة مرهقة، كان مقتضبا، جهما، كأنما أقتطع الدقائق ليس من وقته بل من لحمه. في حينه لم أستطع أن أفسر لنفسي أسباب ذلك الانطباع، لكن السنوات اللاحقة تكفلت بإظهار تلك الأسباب.

ولد أيتماتوف عام 1928 في بداية المرحلة الستالينية في قرية "كيشلاكي كشكير" المتواضعة في بلد جبلي فقير هو "قرغيزيا". كان والده توريكول أيتماتوف كاتبا اعتقلته السلطات عام 1937 وأعدمته بعد ذلك بسنة خلال سنوات المطاردة للأدب والأدباء. ولا أعتقد أن بوسع أي إنسان أن ينسى أو يغفر لسلطة ما إعدام والده. وكان أمام أيتماتوف طريقان فقط: إما أن يصبح محتجا ثائرا يجاهر بعدائه للسلطة، ومعنى ذلك في تلك الظروف أن يُحرم من أية فرصة للكتابة والنشر بل وقد يتعرض للمصير ذاته، أو أن يخفي أيتماتوف ذلك العداء بعيدا في أعماق نفسه، ليقول كلمته بطريقة أخرى. وأظن أنه التزم ذلك الطريق وأن الحذر هو الذي رسم خطواته كلها لاحقا، حتى أوشكت الدولة السوفيتية البوليسية على التهدم.

أنهى أيتماتوف معهد الاقتصاد الزراعي في قرغيزيا عام 1948 ثم عمل سكرتيرا لمجلس سوفيت بإحدى القرى، وبدءا من عام 1952 شرع ينشر قصصه القصيرة. ثم التحق بمعهد جوركي للأدب في موسكو عام 1956، وبعد ذلك أصبح رئيسا لتحرير مجلة "قرغيزيا الأدبية". ولم يكن لأيتماتوف في ظل السلطة السوفيتية أن يصبح رئيس تحرير لأية مجلة لو لم يثبت طويلا ويؤكد ولاءه المستمر للسلطة السوفيتية التي رفعته في المقابل إلى

القمة بعد صدور أولى رواياته "جميلة" عام 1958، ثم منحته جائزة لينين في الأدب عام 1963 وهي أرفع الجوائز الأدبية حينذاك، وأغدقت عليه كل الألقاب التي كانت تُمنح بدءا من كاتب قرغيزيا الوطني وانتهاء ببطل العمل الاشتراكي إلى أن أصبح عضوا في مجلس السوفيت الأعلى وعضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي القرغيزي ثم تقلد منصب مستشار الرئيس ميخائيل جورباتشوف عام 1989، ولم يكن هناك ما هو أبعد أو أكبر من كل ذلك التكريم والاحتفاء الرسمي! وظل أيتماتوف الذي لقنه درس والده أن يكون حذرا يتحدث مطولا عن أهمية "النظام الاشتراكي والأيديولوجية الشيوعية" كوسط اجتماعي في تربية موهبة الأديب.

لمع نجم أيتماتوف واستقر في سماء الأدب السوفيتي بل والعالمي، وكان من ناحية جديرا بذلك الاهتمام، ومن ناحية أخرى سهل له التصالح مع الدولة ذلك الصعود، فحرصت السلطة على ترجمة أعماله الأدبية إلى مئة وخمسين لغة أجنبية خاصة مع قلة عدد الكتاب الموهوبين وسط جيش من أدباء الدعاية الحزبية.

كان أيتماتوف موهوبا بدون شك، وأديبا كبيرا بالقطع، ومخلصا لعمله بشكل مذهل. في الوقت ذاته كان يمثل نموذجا دعائيا باهرا "للعلاقة الطيبة بين موسكو والجمهوريات الآسيوية الصغيرة"، فقد جمعت رواياته بين منجزات الأدب الروسي الأوروبي والتقاليد الآسيوية الشرقية، ومزجت بين الخصائص القومية المحلية والنزعة الإنسانية.

كان أيتماتوف يكتب باللغتين القرغيزية والروسية. عام 1965 كتب روايته المعروفة "وداعا جولساري" بنفسه بالروسية. وبدءا من روايته "جميلة" التي قال عنها الشاعر الفرنسي أراجون إنها "أعظم قصة حب في العالم" استمرت رواياته في الظهور بالروسية: " شجيرتي في منديل أحمر"، و"السفينة البيضاء"، و"الغرانيق الصغيرة"، و"الكلب الأبيض الراكض على حافة البحر"، و"يمتد اليوم أطول من قرن"، ثم "النطع" وأخيرا "نمر من ثلج". دارت أحداث معظم رواياته على أرض "قرغيزيا"، وهي بلد فقيرة دخلها الإسلام في أوائل القرن الثامن م، ونشأت ثقافتها تحت تأثير الثقافتين العربية والتركية حتى أن لغتها كانت تكتب بالخط العربي حتى عام 1928.

وحافظ أيتماتوف في معظم أعماله خلال رحلته الأدبية الطويلة على حذره متفاديا الصدام الصريح مع مشكلات المجتمع السوفيتي، وحدد ذلك

الحذر أفق كتاباته الأدبية، فظلت دوما منطوية على جزء هام من الحقيقة بدون أن تمضي بهذه إلى النهاية. ولم يكن أيتماتوف الكاتب الوحيد الذي وقع بين مطرقة الستالينية وسندان البيروقراطية السوفيتية، كان هناك أدباء آخرون كثيرون أجبرتهم السلطة على الصمت، فلزموا الصمت، لكنهم لم يتطوعوا بقول ما لا يعتقدون. من أولئك ميخائيل بلجاكوف وروايته المذهلة "المعلم ومرجريتا". لكن موقف بلجاكوف كان مختلفا فاختلف مصيره ودفع ثمن ذلك الاختلاف فظلت رواياته حبيسة خزائن اتحاد الكتاب السوفيت لأكثر من ربع القرن بدون أن ترى النور، لكن أعماله رغم الحصار شقت طريقها إلى سماء الأدب واستقرت هناك تلمع بالحقيقة. وقد يكون من القسوة أن نحاسب أيتماتوف وهو أديب كبير من هذه الزاوية، لكن هذه الزاوية بالتحديد هي التي حددت مسيرته الأدبية ومواقفه.

أيتماتوف الذي ضرب مثالا على "الأديب السوفيتي النموذجي" طويلا، مضمرا في ضميره رؤية أخرى، راح فجأة - مع بوادر انهيار الدولة السوفيتية- يتحدث عن "الأخطاء الاستعمارية لموسكو في قرغيزيا" عندما أصبح إطلاق مثل هذه التصريحات لا يكلف المرء شيئا!

ومع استقرار سياسة جورباتشوف والانفتاح والتحول إلى الرأسمالية استولى على جنكيز أيتماتوف الحلم بالحصول على جائزة نوبل في الأدب، وزين له البعض أن الحصول على تلك الجائزة العالمية مستحيل بدون زيارة إسرائيل والتبرك بتأييدها له. هكذا سافر أيتماتوف في منتصف الثمانينات إلى فلسطين المحتلة والتقى بإسحاق شامير رئيس الحكومة حينذاك وبغيره من زعماء الصهيونية في مدينة القدس المحتلة.

التقيت بأيتماتوف في ذلك المؤتمر عام 1987، ولم يكن قد قام بزيارته لإسرائيل بعد. وفرحت بلقائه. صافحني ورحب بي. وجلسنا في ركن هاديء بعيدا عن الضوضاء. ورحت أجرى معه حديثا لمجلة عربية. وكنت أعلم أن الثقافة في وطنه قرغيزيا نشأت تحت تأثير الثقافة العربية فسألته عن تأثير الثقافة العربية في أدبه وإبداعه كأديب وكاتب وعما إن كان قد قرأ أعمالا لأدبائنا العرب؟. فأجابني باقتضاب لكن بصراحة هذه المرة قائلا "عندما يكون عندكم أديب مثل جابريل جارسيا ماركيز فسنقرأه"!

كانت الإجابة صادمة وموجزة. وأرغمت نفسي على مواصلة تسجيل الحوار معه حتى أنهيته ثم شكرته وافترقنا. لكني لم أنشر ذلك الحوار قط، رغم إلحاح المجلة التي قدرت أن حوارا صحفيا مع أديب لامع مكسب أدبي.

ولم ينقض عام واحد حتى فاز أديبنا العظيم نجيب محفوظ بنوبل في 1988! وشعرت أن نجيب محفوظ كان يرد على أيتماتوف "نعم لدينا أدباء جديرون بنوبل". وعكفت ثلاثة شهور كاملة لأنتهى من كتاب لي بعنوان "نجيب محفوظ في مرآيا الاستشراق الروسي" ضم كل ما كتب عن محفوظ من دراسات وأبحاث، وكتبت في مقدمته "هذا الكتاب أشبه ما يكون ببرقية تهنئة ومصافحة لأديبنا الكبير نجيب محفوظ الذي حفر بنصف القرن من العمل المنهك اسم الرواية العربية جنبا إلى جنب مع شوامخ الأدب الإنساني العالمي". وتولى الأستاذ الكبير الراحل محمود أمين العالم نشر الكتاب، وتلقى بعد ذلك رسالة شكر من نجيب محفوظ يعرب فيها عن تقديره لذلك المجهود.

لم يفز جنكيز أيتماتوف بجائزة نوبل، وصدمه ذلك، فسافر من 1990 حتى 1994 سفيرا لقرغيزيا في بروكسل، وقضى خارج بلاده أعوامة الستة عشر الأخيرة، قضاها كأنها قطيعة مع الماضي الذي لم يستطع أن يواجهه بل وكان مجبرا على تأييده.

في يونيه 2008 رحل أيتماتوف عن عالمنا عن عمر يناهز الثمانين عاما، وأوصى قبل موته أن يُدفن إلى جوار والده. وحين أتذكر أيتماتوف الآن فإنني أشعر فقط بالأسى على مصائر الأدباء الذين حاولوا مواجهة القمع بوضوح، ومصائر الأدباء الذين حاولوا تفادي القمع بوضوح.

* * *

عاشت الترجمة ومات النص!

بعد عامين من الدراسة في جامعة موسكو أتقنت اللغة الروسية إلى حد مكنني من قراءة أمير الشعراء الروس الكسندر سيرجييفتش بوشكين (1799- 1837) والاستمتاع بقصائده وتذوقها بكل أبعادها الموسيقية. حينذاك توقفت طويلا عند قصيدته "بنيت لنفسي تمثالا" التي كتبها الشاعر العظيم قبل عام من وفاته. جذبني إليها الشعور العارم بكبرياء الكاتب وأهمية دوره. فيها يقول بوشكين "لقد بنيت لنفسي تمثالا.. لن تنمو الأعشاب على الطريق إليه". أي أن الناس سيترددون على تمثال الشاعر بدون انقطاع حتى أن الأعشاب لن تنمو على الطريق إليه من كثرة زواره.

أعجبتني القصيدة. قررت في لحظة حماس أن أترجمها إلى العربية. شجعني على ذلك إلمامي بأوزان الشعر العربي. هكذا عكفت على القصيدة يومين أو ثلاثة إلى أن لم يعد ممكنا- من وجهة نظري- أي تجويد، أو قضاء "طيلة النهار لوضع فاصلة، وطيلة الليل لحذفها" على حد تعبير أوسكار وايلد عن تجويد الكتابة. صارت القصيدة إذن بين يديَّ ناطقة بلغتي. تركتها عدة أيام لأخرج من حرارة العمل عليها ثم رجعت إليها أقرأها من جديد. لكن صدمتي كانت كبيرة. ودهشتي أيضا. إذ لم أجد في القصيدة شيئا أي شيء مما حفزني في البداية إلى ترجمتها. لا شيء على الإطلاق. كانت في واقع الأمر مجرد كلمات عربية تقابل بشكل دقيق من حيث المعنى الكلمات الروسية. ولا شيء عدا ذلك. ولو أن أحدا حاسبني حساب المترجمين العسير لما عثر لي على غلطة واحدة في الترجمة. كان كل شيء سليما وصحيحا. لكن لا شعر ولا فن ولا روح. فهي ترجمة أقرب إلى القول الشائع "نجحت العملية، وتُوفي المريض"!

أغضبني، من الناحية الفنية بل والأخلاقية أن تصبح ترجمتي نعشا لقصيدة بوشكين أمير الشعراء الروس الذي أحرق الأرض تحت قدمي الإقطاع والحكم الاستبدادي في روسيا.

لكن كيف حدث هذا؟ ما هي الأسباب التي أدت إلى ذلك؟. النص سليم مثل بدن مكتمل، لكن بلا روح. أدركت أولا أنه ليس ثمة مترجم عام، قادر على ترجمة كل شيء كما يظن البعض. وأن هناك أنواعا من الترجمة وليس ترجمة على العموم، ومن ثم ينبغي أن يكون هناك مترجم مختص في كل فرع داخل كل لغة. على سبيل المثال مترجم علوم عن الإنجليزية. مترجم أدب عن الإنجليزية. مترجم فلسفة. وهكذا. ذلك أن خبراتي السابقة في ترجمة المقالات السياسية والاجتماعية لم تنفعني بحرف عند ترجمة الشعر. أدركت أيضا – وهي خبرة قد لا يوافقني عليها كثيرون - أن الشعر لا يقبل الترجمة. بمعنى أن ما سيصل منه في أفضل الأحول هو المعنى العام، أو صور مجتزأة، لكن ليس الشعر بالمفهوم الشامل للشعر.

رقدت القصيدتان أمام عينيَّ: بالروسية حيث تحس بكل وهج الشعر وألقه وحرارته، وبالعربية حيث لا شيء رغم دقة المعنى. كان ذلك أشبه ما يكون بصورة جامدة لوجه حي، دقيقة لكن لا تنطق، لا تعبر، لا تختلج ملامحها بأي ارتعاشة ملهمة. ولتوضيح ما أقصده إليك مطلع قصيدة أخرى لبوشكين بعنوان الزهرة مترجمة إلى العربية:

زهرة مجعدة بدون رائحة
رأيتها منسية وسط كتاب
وفجأة امتلأت روحي
بتساؤلات عديـــدة.

والفارق شاسع بين أن تقرأ قصيدة "الزهرة" بالروسية وأن تقرأ تلك الترجمة السليمة التى لا توحي بأي شيء!

وسأضرب مثالا من لغتنا بأبيات شهيرة من إحدى قصائد المتنبي في مدح سيف الدولة حيث يقول: "على قدر أهل العزم تأتي العزائم / وتأتي على قدر الكرام المكارم / وتَعظُم في عين الصغير صغارها/ وتَصغر في عين العظيم العظائم". المعنى هنا عند المتنبي بسيط فإذا ترجمته إلى لغة أخرى فإنه لن يخرج عن قولك: "حسبما تكون كريما تكون أفعالك كريمة"، أو كما يفسر عبد الرحمن البرقوقي البيت ذاته قائلا[1]: "والمعنى أن الرجال قوالب الأحوال، فإذا صغروا صغرت، وإذا كبروا كبرت". فهل يُعد المعنى الذي ترجمنا إليه البيت شعرا؟. الحق أن عظمة المتنبي تأتي من صياغته للمعنى، أي أنها تأتي من تكرار حرف الراء، والعلاقة الموسيقية التي يخلقها ذلك التكرار بحساب معين. فهل يمكن ترجمة ذلك التكرار المدروس إلى لغة أخرى مع الحفاظ على المعنى ذاته؟.

في اعتقادي أن تلك العملية تحديدا مستحيلة. وأظن أن ما يصلنا من شعر شكسبير هو في الأغلب أفكاره، وصوره، لكن ليس الشعر ذاته الذي لا يمكن فصله عن لغته. من هذه الزاوية فإن أمير الشعراء الروس بوشكين يشبه شاعرنا العملاق المتنبي. فإذا قرأت بوشكين باللغة الروسية ستجد ذلك التدفق والسلاسة والتراكيب اللغوية والموسيقية التي تأسرك بالكامل، أما حين تترجمه فلا يبقى منه سوى معان بسيطة شاحبة أقرب للنثر، كأنك جردت طائرا من جناحيه وتريد أن تراه محلقا!

أقـول إننـي استخلصـت لنفسـي – وليـس للآخريـن – أن ترجمـة الشـعر "خيانـة" وأحيانـا هـي أبعـد مـن ذلـك. لكـن تلـك الخيانـة قـد تكـون "حلالا" مسموحا به لضرورتها فـي التعـرف إلـى شـعراء العـالم. لكـن مـن الأهميـة بمكان ونحن نمارس الخيانة أن نضع فـي اعتبارنـا أننـا نقـدم للقـارئ صـورة الشعر، وليس وجهه النـاطق الحـي. لهـذا السـبب كـانت محـاولتي لترجمـة قصيدة بوشكين هي الأولى والأخيرة في ذلك المجال. ولا بأس من الإشــارة هنا إلى أن شعر بوشكين - وقد تُرجم الكثير منه إلى العربية – لم يـترك أثـرا فـي الحركـة الثقافيـة المصـرية، خلافـا لأعمـاله الروائيـة والقصصـية ومنهـا "قصص بيلكين"، و"ملكة البستوني"، و"ناظر المحطة" ورواية "ابنـة الآمـر" وغيرها. لا يعني كل ما سبق أنني ضد ترجمة الشعر. فقد استفدت اسـتفادة جمة من ترجمات عديدة واستمتعت بها. لكني أتحـدث عـن تجربـتي الذاتيـة وموقفي الشخصي أو تصوري الخاص. ربما يكون البعـض قـادرا علـى صـنع المعجزة أي ترجمة الشعر. إلا أن التراجم الشعرية التي قرأتهـا واسـتمتعت بها مثل ترجمة شعر ناظم حكمت، وبول إيلوار، وآخرين، كانت تهبني القليل جدا من الشعر الذي يشبه رائحة الورد بعد ذبوله.

وإذا تركنا الشعر، يبقى عشقى للقصة القصيرة الذي قادني للبحـث عـن أعمال للكتاب الـروس وترجمتهـا خاصـة أعمـال الكتـاب الـذين تـم التعـتيم عليهـم فـي الاتحـاد السـوفيتي. المشـكلة الأولـى الـتى واجهتنـي – وهـي المشكلة الأولى في الترجمة عامة- هي الاختيار. ذلـك أن المـترجم هـو فـي اعتقادي مؤلف بلغة أخرى. بمعنى أن النص الذي يتخيره المترجم هو النــص الذي يتمنى أن يصل إلى الناس، وأحيانا هو النص الذي كان المترجم يـود لـو أنه كان مؤلفه لولا أن كاتبا آخر سبقه إلى ذلك.

وإذا كانت الترجمة تأليفا غير مباشر يُسهم في تغيير الوعي يصبح السؤال هنا هو: ماذا نترجم؟ وأي وعي نشارك في نشره؟. في مرحلة ما كانت ترجمة نص دستور 1818 الفرنسي التي قام بها الطهطاوي تمثل عملا هاما في تطوير المجتمع، لأن ذلك الدستور تضمن بمقاييس عصره مبدأ أن الأمة - وليس الحاكم المستبد- هي مصدر السلطات. كان اختيار الطهطاوي لترجمة ذلك الدستور انحيازا لمصالح الأمة، وبترجمته سعى الطهطاوي لنشر الوعي بأهمية تقييد الحاكم بصلاحيات تشريعية وتنفيذية وقضائية. في حينه كان تطور المجتمع العربي في أمس الحاجة لترجمة كتلك التي اختارها الطهطاوي في سياق رؤية توخت وضع مقاليد الأمة بيدها. وقد لا يسترشد اختيار النص بذلك النفع المباشر الاجتماعي أو العلمي ولكن باعتبارات جمالية وفكرية ومعرفية أخرى في سياق الرؤية نفسها التي تضع في حسبانها جدوى الثقافة على الأمة. ولاشك أن كل نص يرسخ الجمال في مواجهة القبح هو عمل يرقى بالإنسان. ألم يؤمن دوستويفسكي بأن: "الجمال سينقذ العالم"؟.

الترجمة في اعتقادي اختيار، بل وموقف. تلك هي أولى المشكلات التي ينبغي أن يتصدى لها المترجم. أحيانا أرى البعض يقومون بترجمة قصص فرنسية، وموضوعا علميا، وآخر سياسيا، ورابعا في الفلسفة، فأقول لنفسي: هذا مترجم حرفي ـ تقني. أما المترجم المفكر فلابد لأعماله أن تعكس رؤيته الشاملة الخاصة به، وأن يتكامل ما يُترجمه في منظومة واحدة. هذا هو المترجم المفكر.

قلت إن القصة القصيرة استوقفتني خلال وجودي في روسيا، خاصة أعمال الأدباء الذين تم تجاهلهم وإبعادهم عن دائرة الضوء لاختلاف رؤاهم السياسية والاجتماعية عن الرؤية الرسمية، ومقاومتهم لطابع الدولة الشمولية. صادفتني حينذاك أعمال عظيمة لكتاب كبار حقا مثل "أندريه بلاتونوف" المجهول لدينا تقريبا، و"يوري كازاكوف"، و"فاسيلي شوكشين" وغيرهم. واستولى عليَّ شعور بضرورة نقل تلك الأعمال إلى العربية، ليس لمجرد أنها كانت أعمالا محظورة، بل ولقيمتها الأدبية والفنية أساسا. وعندما عكفت على ترجمة تلك القصص كانت المعضلة الأولى التي واجهتني وأظن أنها تواجه كل مترجم هي التردد بين نقل المعنى، وبين نقله مع تحسينه أو تحويره ليصبح مقبولا لدي المتلقي.

إلا أن فتح باب "تحسين" أو "تقريب" النص إلى المتلقي منزلق قد يحطم رقبة النص الأصلي. هذا هو بالضبط ما قام به طانيوس أفندي عبده الذي ترجم مسرحية شكسبير "هاملت" عام 1897 لتقديمها على المسرح وطبعها عام 1902. فقد لاحظ طانيوس أفندي عند عرض المسرحية أن الجمهور كان مستاء أشد الاستياء من الظلم الذي وقع على "هاملت"، فما كان منه إلا أن عدل نهاية المسرحية بحيث يفوز هاملت بعرش والده ويواصل حياته السعيدة! لذلك وصف د. محمد يوسف نجم هذه الترجمة بأنها تشويه ومسخ للعمل، ونفى الكثيرون عنها صفة الترجمة، واعتبروا أن أول ترجمة لمسرحية "هاملت" هي التي قام بها لاحقا الشاعر خليل مطران، هناك حيث تطابقت الترجمة مع النص.

ولدينا فيما يخص ترجمة الروسي مثال واضح على ذلك، فقد قام سامي الدروبي بترجمة الأعمال الكاملة لدوستويفسكي من الفرنسية إلى العربية. لكن عندما تولى الصديق د. أبو بكر يوسف مراجعة تلك الأعمال على الأصل الروسي تمهيدا لإعادة طباعتها في موسكو اكتشف اجتهاد سامي الدروبي

الضخم لتحسين أسلوب دوستويفسكي على نحو لم يكن يتطابق مع النص الروسي في مواضع غير قليلة.

هناك مثال آخر هو الترجمة التي قامت بها فاليريا بورخوفا للقرآن الكريم من العربية إلى الروسية، وفيها أضافت المترجمة كلمات زائدة على الأصل لمجرد إضفاء الطابع الشعري على النص. ومن أمثلة ذلك الآية الكريمة: "إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا" فقد ترجمت بورخوفا معاني الآية الكريمة كالتالي: "ورأيت الناس الصالحين يدخلون في دين الله أفواجا" وأضافت الصالحين من عندها لمجرد وقعها الموسيقي المتسق مع الكلمات السابقة واللاحقة[2]، أي بهدف تقريب النص إلى المتلقي الروسي!

هناك طريقة أخرى لتحسين النص، ألا وهي تعريب المعنى والصور لتصبح مفهومة بيسر لدي القارئ العربي. على سبيل المثال فإننا للتعبير عن المفاجأة عند رؤية شخص لم نكن نتوقعه نقول: "طلع لي كما العفريت" أي بغتة. لكن الروس يقولون: "طلع لي كما يسقط الثلج على الرأس". وقد لا يستريح القارئ المتلقي للتعبير الروسي "كما يسقط الثلج على الرأس"، لأنه تعبير غير مألوف. لكن الأصح أن نتمسك بالتعبير الوافد لأنه ينقل معه ثقافة أخرى. فالثلج في روسيا عنصر حيوي من عناصر الطبيعة. في هذا السياق عندنا أيضا مثل يقول "إذا عشقت اعشق قمر، وإذا سرقت اسرق جمل". في اللغة الروسية مثل يكاد أن يكون مطابقا لهذا المثل العربي. يقول الروس: "إذا عشقت اعشق جميلة وإذا سرقت اسرق مليون". هنا يبدو الإغراء قويا بترجمة هذا المثل باستخدام الصيغة العربية حيث أن المعنى واحد. ولكن حتى ذلك يبدو لي خطأ. لأن هناك فارقا كبيرا بين مجتمع تدخل في أسس تذوقه الجمالي صورة القمر كمرجعية جمالية، ومجتمع تدخل في أسس تذوقه الجمالي المرأة كقيمة جمالية. أيضا هناك فارق بين مجتمع يقدر الثروة بالإبل نتيجة لظروف الطبيعة الصحراوية وأهمية الجمل فيها، وبين مجتمع آخر يقدر الثروة بالعملة النقدية! وفي واقع الأمر فإننا نواجه – في هذه المعضلة الصغيرة – ثقافتين، وليس لغتين، ومن ثم يجب أن تعكس الترجمة ليس المعنى فحسب – حتى لو جاء متطابقا – بل الصور ذاتها ومفردات تلك الصور.

والخلاصة أن مختلف وسائل التحسين تستهدف بشكل أو بآخر جعل النص مقبولا وفق ذائقة المتلقي، أي وفق تقاليده الثقافية والجمالية ومعارفه ودرجة تطوره. على حين أن الترجمة ليست تقريب النص إلى القارئ لكن نقل النص إليه بكل ثراء واختلاف عناصره الثقافية والتاريخية. في ذلك تحديدا تكمن قيمة الترجمة. فالمترجم لا ينقل إلينا فكرة فقط، أو بناء قصصيا، بل ثقافة وطقوس مجتمع بأكمله. وعندما كان الأدب الروسي

يُترجم إلى العربية عبر لغة وسيطة هي الفرنسية والانجليزية على الأغلب، كان المترجمون يقعون في الخطأ التالي عندما ينقلون الصورة التالية: "جلسوا وشربوا الشاي بالسكر". ذلك أن هذه الصورة لا تنقل إلينا طقسا روسيا شديد الخصوصية! ذلك أن الروس حين يجلسون لاحتساء الشاي يضعون بجواره قطع سكر صلبة ويمتصونها خلال شرب الشاي! الترجمة الأولى مخلة لأنها لا تنقل طقسا خاصا مميزا وتحيله إلى التقليد الشائع "شربوا الشاي بالسكر" فتسلبه خصوصيته! لهذا فإن الترجمة تتطلب ليس فقط الإلمام باللغة بل وبثقافة وتقاليد الشعب الذي نترجم آدابه.

قلت فيما سبق إنني هجرت ترجمة الشعر إلى القصة. الآن أقول كيف يمكن لأي منا أن يهجر الترجمة عموما بضمير مستريح! فكرت في ذلك بعد أن عكفت على ترجمة واحدة من روائع القصص الروسية وهي "كان بكاؤك في الحلم مريرا" للكاتب يوري كازاكوف. القصة تتحدث عن أب يقوم برحلة مع ابنه الصغير إلى الغابات حيث يلهو الطفل بين الأعشاب وينابيع المياه. هناك قرب نهر صغير يجد الطفل نقرة ماء فيستغرق في تأمل ما فيها. ويشير الكاتب إلى أن النقرة احتوت على "أسماك وليدة لتوها"[3].

بدون تفكير ترجمت العبارة من الروسية كما وردت "أسماك وليدة لتوها". بعد قليل أخذت أفكر: لكن الأسماك لا تلد؟! بالروسية قد يصلح القول بأن الأسماك وليدة لتوها، لكن بالعربية؟! كان البديل السريع المتاح أمامي هو "الأسماك المفقوسة لتوها"، وهي عبارة كانت كفيلة بتدمير كل شاعرية نسيج القصة الناعم. لكي لا أصدع رأس القارئ أقول إنني نحو يومين ظللت أبحث عن مخرج حتى كتبت "الأسماك الخليقة لتوها". فضلت كلمة الخليقة من عملية الخلق. وحتى ذلك التصرف لم يسلم فيما بعد من الانتقاد. إذ قيل لي: وهل هي خليقة من تلقاء ذاتها؟ أليست مخلوقة؟. لكني لم أسترح لكلمة المخلوقة نظرا لما تثيره من تداعيات مع كلمة "مخلوق" بمعنى إنسان ومخلوقة بمعنى امرأة.

مصاعب الترجمة هذه – إذا عكف أحد على الترجمة بجدية – هي التي جعلتني فيما بعد أتردد طويلا في تكرار التجربة، وهي التي تدفع بي للابتعاد عن الترجمة خاصة الأدب. لكني لا أنكر سعادتي الغامرة حين أعود من حين لآخر إلى قراءة بعض القصص التي ترجمتها فأجد أنها كالروح الحية تتحرك في بدن لغوي قوي، كل ذراع في مكانها وكل عين في موضعها وكل كلمة في محلها. هي سعادة لكنها تتطلب الكثير من المكابدة والجهد.

***

هوامش:

(1) شرح ديوان المتنبي: عبد الرحمن البرقوقي – المجلد الثاني – دار الكتاب العربي لبنان.

(2) د. علاء الدين فرحات – رسالة دكتوراه من معهد بوشكين بموسكو عام 1996 موضوعها "الترجمات الروسية للقرآن الكريم". الفصل الرابع ترجمة فاليريا بورخوفا للقرآن الكريم.

(3) د. أحمد الخميسي – رائحة الخبز – سلسلة آفاق الكتابة – الهيئة العامة لقصور الثقافة – 1999

حكاية ذبابة حمقاء

لم أحب كاتبا في حياتي كلها مثلما أحببت أنطون تشيخوف. ولم أقم بزيارة لمدفن كاتب غير تشيخوف. لازمته منذ أن تعرفت إليه إلي الآن صديقا حياً أحدثه وأناقشه وألجأ إلى عالمه ساعة الضيق. هناك أدباء تقتصر محبتك لهم على عظمة أعمالهم مثل شكسبير الذي لا نعرف شيئا مؤكدا عن حياته الشخصية. هناك أدباء ليس في حياتهم ما يجتذبك إليهم شخصيا على الرغم من أنهم عمالقة، ولنقل مثلا الروائي الأمريكي أرسكين كالدويل، أو حتى العظيم سرفانتس مُبدع "دون كيشوت".

عشقتُ تشيخوف أديباً مع الملايين من قرائه. لكنه علاوة على ذلك ربطني إليه بتكوينه الإنساني المرهف الذي يشبه جوهرة نادرة منذ أن قرأت في مسرحيته "الخال فانيا" عبارته: "في الإنسان لابد أن يكون كل شيء جميلا: وجهه وملابسه، روحه وأفكاره"! وأقوال أخرى مسكوبة كالنور في قصصه: "الإنسان الطيب يخجل حتى أمام كلبه"! و"أي ثراء يتفتح في الروح عندما تَعشق؟ أي حنان وأية رقة؟! حتى أنك لا تصدق أن بوسعك أن تحب هكذا!"، ثم: "من الأفضل للمرء أن يكون الضحية على أن يكون الجلاد"! و"كلما ازداد نقاء المرء زادت تعاسته". وقوله: "يمكن للإنسان حتى أن يمرض إذا علم أن هناك من ينتظر شفاءه كفرحة كبرى"! وأخيرا قوله "يجب أن تكون حياة الانسان مهيبة وجميلة كقبة السماء"!

لولا أن حياة تشيخوف معروفة ومصادرها متوفرة لاستعرضت هنا جانبا من حياة الكاتب العبقري الذي كان جده قنا مملوكا لإقطاعي روسي وتمكن بإرادة مذهلة من أن يراكم المال حتى افتدى حريته بصك رسمي! تركت هذه القصة في تشيخوف أثرا لا يمحى حتى أنه قال فيما بعد إنه -خلال حياته كلها- لم يفعل شيئا سوى أنه "حرر نفسه من العبد قطرة فقطرة"!

يهمنى هنا الإشارة إلى قضية تشيخوف الرئيسية التي ميزت إبداعه عن غيره من الأدباء، ألا وهي سؤاله الملح والعميق والبسيط: ماذا نفعل بحياتنا؟. برز ذلك منذ الأعمال الأولى لتشيخوف، ثم نما في قصص سنوات النضج مثل "حكاية مملة" وفي مسرحياته "الأخوات الثلاث" و"بستان الكرز". كان هذا السؤال حجر الزاوية فى إبداع تشيخوف كله. سنجده مطروحا في القصة المسماة "حكاية السيدة ن . ن"، وفيها تحدث الفتاة نفسها: "عشتُ في رخاء ومرح بدون أن أحاول فهم نفسي وبدون أن أعرف ماذا أنتظر؟ ماذا أريد؟ بينما الوقت يمضي، ويمضي". تبكي وتضغط صدغها بيدها "يا إلهي إلهي.. لقد هَلُكتْ الحياة"! هذا الخوف من تبدد الحياة عبثا وبدون جدوى ظل يتردد لدىَّ تشيخوف كما في قصة "زوجة" حين تقول ناتاليا: "كان يمكن لهذه الحياة أن تكون رائعة. يا لها من حياة لا يمكن استعادتها الآن"! وفي قصة "كمان روتشيلد" يحدث ياكوف نفسه وهو يتأمل حياته "لماذا تنقضي الحياة التي تُعطى للإنسان مرة واحدة بدون فائدة"؟. كيف ينبغي أن نحيا؟ ما الذي علينا أن نفعله لكي لا تُفلت الحياة الثمينة من بين أيدينا؟. هذا هو سؤال تشيخوف الذي يطرحه دائما مشبعا بالعطف على

الناس وبالأمل في حياة أفضل. ولأنه سؤال يتجاوز القوميات والمجتمعات إلي الإنسانية كلها قال ستانسلافسكي إن مؤلفات تشيخوف "ستتخطى الأجيال، ولن تتخطاها الأجيال".

أقدم للقارئ هنا نصين لم يسبق ترجمتهما أو نشرهما من أعمال تشيخوف. الأول "حكاية مهداة إلى ذبابة حمقاء" الذي ينتسب إلى النصوص الأولى التي كتبها تشيخوف وهو في السادسة والعشرين بروح السخرية التي فارقته فيما بعد. النص – القصة- يصور موقف الكاتب المبكر من أدعياء الثقافة. هو الموقف ذاته الذي عبر عنه من قبل في قصته "القناع" وفيها عرض لمجموعة من المثقفين داخل مكتبة بأحد النوادي حيث أقيم حفل تنكري. يتصادف وجود أحد الأثرياء متنكرا بقناع داخل المكتبة. يلهو ويزعق فينهره المثقفون إلى أن يكتشفوا أنه الرجل الثري فيصيبهم الذعر ويتسللون على أطراف أصابعهم من المكتبة لكي لا يزعجوا بوجودهم إغفاءة الثري! بعد قصة "القناع" بنحو ثلاثة عشر عاما يكتب تشيخوف في فبراير 1899 إلى أحد أصدقائه قائلا: "ليس الحاكم وحده هو المذنب، الصفوة المثقفة بأسرها مذنبة. أنا لا أؤمن بتلك الصفوة، إنها منافقة، كاذبة، مهووسة، قليلة التربية، كسولة. لا أؤمن بهم حتى لو عانوا واشتكوا من أن جلاديهم من بين صفوفهم". بالنص التالي كان تشيخوف يسخر من أولئك:

"حكاية ذبابة حمقاء"

"ذبابة طارت في أرجاء الغرفة تتشدق بصوت مرتفع بأنها تعمل في الصحف. أخذت تئز في الجو: "أنا كاتبة! أنا صحفية! أفسحوا الطريق أيها الجهلاء!". سمع البعوض والبق والصراصير والبراغيث أزيز الذبابة. شعروا ناحيتها باحترام خاص. راحو يدعونها إلى بيوتهم لتناول الغداء بل وأخذوا يقرضونها المال. أما العنكبوت الذي يخشى الظهور علنا فقد انزوي في ركن وقرر ألا يلوح أمام عيني الذبابة.

استفسرتْ البعوضة – التي تتمتع بجرأة كبيرة– من الذبابة:

- في أية صحف تكتبين يا ذبابة إيفانوفنا؟

- تقريبا في كل الصحف! حتى أن هناك بعض الجرائد التي أُضفي عليها بدوري الشخصي صبغتها العامة ونبرتها بل واتجاهها العام! من دوني لكانت صحف كثيرة قد فقدت طابعها المميز!

- وما الذي تكتبينه في الصحف يا ذبابة إيفانوفنا؟

- أنا أترأس قسما خاصا.

- أي قسم؟

- نعم.. أي قسم؟!

وأشارت الذبابة الكاتبة إلى بقع كثيرة من وسخ الذباب ..على سطح ورقة جريدة!".

* * *

النص الثاني لتشيخوف جزء من رحلته التي قام بها إلى جزيرة سخالين الواقعة عند الشواطئ الشرقية لآسيا، حيث كان المحكومُ عليهم يقضون

مدد العقوبة فى ظروف وحشية. قام تشيخوف بتلك الرحلة عام 1890 في عربات تجرها الخيول، ثـم سـجل رحلتـه فـي كتـاب مـن ثلاثمائـة وخمسـين صفحة بعنوان "جزيرة سخالين" صدر عام 1893، كما ألهمته الرحلة بعضـا من أروع قصصه التي ظهرت فيما بعد. قام تشيخوف برحلته وهو فـي قمـة نضجه الأدبي وشهرته، فأجرى أول إحصاء لتعداد السكان في تلـك الجزيـرة، ورصد الأمراض المنتشرة بينهم، والأدوية التي يتناولونهـا، وأصـناف العقـاب التي تحل بهـم، وأنـواع العمـل الـذى تقـوم بـه النسـاء والأطفـال، وظـروف المعيشة في السجون.

قبل قيام تشيخوف برحلته حاول صديقه "سوفورين" أن يثنيه عنها نظرا لحالة تشيخوف الصـحية ولمتـاعب الطريـق الشـاق، فكتـب تشـيخوف إليـه يقـول: "تخـبرنى فـي رسـالتك إنـه لا يوجـد فـي سـخالين أي شـيء مـثير للاهتمام.. لكن سخالين في الوقت الحاضر هي المكان الوحيد الـذي يمكننـا أن نـدرس فيـه كيـف يتـم اسـتخدام المحكـوم عليهـم فـي تعميـر المنـاطق المهجورة.. إن سخالين موضع لعذاب لا يطاق. عذاب لا طاقة لمخلوق به إلا الإنسان سواء أكان حرا أم مستعبدا.. ويتضح لي من الكتب التي قرأتها حتى الآن والتي أقرأها حاليا أننا قد أغمضنا أعيننا عن ملايين البشر الذين يتعفنون هناك في السجون بدون هدف أو تفكير وبصورة بربرية".

هكذا كان تشيخوف يرى دور المثقف، ليس في التباهي والادعاء، بل في عمل صادق من أجـل النـاس والمجتمـع. مـن ثـم اتجـه إلـى سـخالين وهـو مصـاب بالسـل، وقـام باحصـاء عـدد السـكان فـي مجموعـة مـن الأمـاكن والتعـرف إلـى ظروفهـم المعيشـية وصـمم بنفسـه بطاقـات خاصـة لجمـع المعلومات وتصنيفها. يقدم لنـا النـص التـالي صـورةً مرعبـة، لحيـاة غريبـة، وأناس مسحوقين،على جزيـرة نائيـة. مـع ذلـك سيشـعر القـارئ أن النـص يتنفس بروح تشيخوف العطوف، الساخرة برقة، الرحيمة، وبقدرته المذهلـة كأديب يلحظ أدق التفاصيل. ها هو جزء من أوراقه التي لم تترجم من قبل.

من "جزيرة سخالين "

(1)

لكي أستطيع – حسب الإمكـان - زيـارة كـل نقـاط التجمعـات السـكانية والتعرف عن قرب إلى حياة المنفيين هنا، لجأتُ إلى وسـيلة كـانت الوحيـدة الممكنـة فـي وضـعي الحـالي.

قمتُ بإحصـاء السـكان فـي القـرى الـتي تواجـدت فيهـا. مـررتُ علـى كـل الأكواخ، سجلتُ أسماء أصـحابها، وأفـراد عـائلاتهم، والقـاطنين، والعـاملين. وقد تفضلوا بأدب فعرضوا عليَّ مساعدين من باب اختصار الـوقت وتسـهيل العمل. لكن بما أن هدفي الرئيسي لم يكن فقط نتائج الاحصاء الـذي أقـوم به، بـل الانطباعـات الـتي أتلقاهـا خلال ذلـك فـإنني لـم ألجـأ إلـى مسـاعدة الآخرين إلا في حالات نادرة.

من الصعوبة بمكان في واقع الأمر أن نطلق كلمة إحصاء على عمل قـام به شخص واحد خلال ثلاثـة شـهور، فنتيجـة ذلـك التعـداد لا يمكـن أن تكـون

دقيقة أو وافية. مع ذلك ربما تكون أرقامي هذه نافعة للبعض نظرا لعدم توفر أية معطيات أخرى أكثر جدية، لا في السجلات ولا في الدواوين الحكومية لجزيرة سخالين.

استخدمتُ في الإحصاء بطاقات تم طبعها خصيصا من أجلي في مطبعة إدارة الشرطة. أما عملية التعداد ذاتها فكانت تجري كالتالي: في السطر الأول من كل بطاقة سجلتُ اسم المركز السكاني أو القرية. في السطر الثاني رقم المسكن حسب القوائم الحكومية. في السطر الثالث حالة الشخص: محكومُ عليه بالأشغال الشاقة، أو مستوطن، أو فلاح منفي، أو حر. كان المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة حين أسألهم عن وضعهم يجيبون بقولهم: "عامل". فإذا كان قبل الحكم عليه من جنود الجيش فإنه يضيف: "من الجنود يا صاحب السعادة". وحين يقضي الشخص مدة الحكم أو حسب تعبيره "حين تنتهي مدة الخدمة" فإنه يصبح مستوطنا في الجزيرة. لكن كلمة مستوطن هنا لا تتميز كثيرا عن كلمة مواطن مع الحقوق التي تصاحب الوضعية الجديدة. وردا على سؤالي: ما هو وضعك؟ يجيب المستوطن عادة هكذا: "حُر".

في السطر الرابع أسجل اسم الشخص واسم والده ولقب العائلة. بذلك الصدد أتذكر شيئا واحدا، أنني حسبما أظن، لم أسجل بشكل صحيح اسما واحدا من أسماء النساء التتاريات هناك. إذ يصعب أن تتوصل لشيء واضح مع العائلات التتارية حيث الكثير من البنات، والأب والأم بالكاد يفهمان باللغة الروسية. من ثم كنتُ مضطرا أن أعتمد على التخمين وأنا أسجل التتارية التي تكتب حتى في الملفات الحكومية بشكل غير صحيح. ويحدث أن تلتقي برجل روسي أرثوذكسي وتسأله: ما اسمك؟ فيجيب بجدية قائلا: "كارل". إنه أفاق متشرد استبدل في الطريق باسمه اسم شخص ما ألماني. أذكر أنني سجلتُ حالتين من هذا النوع: كارل لانجر، وكارل كارلوف. وقد التقيت بمحكوم بالأشغال الشاقة يدعي أن اسمه نابليون. صادفت أيضا امرأة متشردة تقول إن اسمها "براسكوفيا" وهي ماريا. أما فيما يتعلق بألقاب الأشخاص، فقد وجدت في سخالين ألقابا كثيرة مثل بوجدانوف، وبيسبالوف، وألقابا أخرى كثيرة مضحكة مثل: "الكافر"، و"أبو معدة"، و"النطع". وكما قالوا لي فإن ألقاب العائلات التتارية في جزيرة سخالين تظل تشير بالرغم من حرمان أصحابها من كافة الحقوق إلى مراتب سامية. لا أدري مدى صحة ذلك، لكني سجلت عددا غير قليل من السلاطين، وأمراء الخانات. الاسم الأكثر شيوعا بين المتشردين هو إيفان، واللقب هو "لا أذكر". وإليكم أسماء وألقاب بعض أولئك المتشردين : "مصطفى لا أذكر". "فاسيلي بلا وطن". "فرانتس لا أذكر عشرون عاما" (الرقم هنا جزء من اللقب ذاته)! "ياكوف عديم القلب". "إيفان المتشرد 35 سنة" (الرقم جزء من اللقب).

في السطر الخامس كنت أسجل السن. النساء اللواتي تجاوزن الأربعين يتذكرن أعمارهن بصعوبة، ويجبن على سؤالي وهن يفكرن. الأرمن من خليج يريفان لا يعرفون أعمارهم على الإطلاق. وقد أجابني أحدهم على النحو التالي: "ربما أبلغ من العمر ثلاثين سنة، وربما أكون قد بلغت الخمسين بالفعل". في تلك الحالات كنت أحدد العمر تقريبا بالنظر إلى الشخص، ثم أقوم بمراجعة ذلك على الأوراق الأخرى. أما الذين كانوا أقل

من خمس عشرة سنة أو أكثر قليلا، فكانوا في العادة يُكبرون أعمارهم. واحدة منهن كانت في سن عروس، أو أنها مارست الدعارة منذ زمن بعيد وتدعي أن عمرها لا يزيد عن ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاما. السر في ذلك أن الأطفال والمراهقين تحت سن الخامسة عشرة في الأسر الفقيرة يحصلون على نباتات للعلف من الإدارة. لذلك كانوا هم وآباؤهم لا يقولون الحقيقة.

فى السطر السادس كنت أسجل الديانة. السابع محل الميلاد. وردا على سؤالي أين ولدت؟ كنت أتلقى الإجابة فورا دون صعوبة. لكن المتشردين كانوا يجيبون على السؤال بنوع من الحذر وبكلام يحتمل معنيين أو بقولهم "لا أتذكر أين ولدت". حين سألتُ فتاة شابة تدعى "نتاليا لا أذكر" من أية محافظة أنت؟ قالت لي: "من كل محافظة شوية"!

السطر الثامن كنت أسجل فيه: في أي عام وصلتَ إلى سخالين؟. وكان من النادر أن يجيبني أحد على هذا السؤال فورا أو بدون توتر. وعلى الرغم من أن العام الأول في سخالين هو عادة عام التعاسة المرعبة إلا أنهم إما لا يعرفون في أي عام جاءوا إلي هنا أو أنهم لا يتذكرون. حين سألت امرأة محكوم عليها بالأشغال الشاقة: في أية سنة جاءوا بك إلى سخالين؟ أجابتني بخمول بدون أن ترهق نفسها بالتفكير: "من يدري؟ لابد أنها سنة ثلاثة وثمانين". تدخل في الحديث زوجها ولعله كان فقط يسكن معها قائلا لها: "مال لسانك شغال على الفاضي؟ أنتِ جئتِ إلى هنا سنة خمسة وثمانين". وافقته المرأة وهي تتنفس بارتياح: "ممكن في خمسة وثمانين". وحين بدأنا معا في حساب السنوات اتضح أن الرجل كان على حق. الرجال عادة لا يشعرون بالحرج الذي تشعر به النساء ومع ذلك فإنهم لا يجيبون فورا ويفكرون بعض الوقت قبل أن ينطقوا. أسأل أحد المستوطنين: - في أي سنة جاءوا بك إلى سخالين؟ فيرد عليَّ بدون ثقة وهو يختلس النظر إلى صاحبه: "- أنا جئت في نفس الدفعة التي جاء فيها صاحبي جلادكي. الدفعة الأولى من المتطوعين التي جاءت إلى هنا عام 1879. أسجل ما قاله. يحدث أحيانا أن أتلقى إجابة من هذا النوع: "أنا قضيت ست سنوات أشغال شاقة، ولي ثلاث سنوات مستوطن.. احسبها أنت بقى". أقول له: إذن أنت في سخالين للعام التاسع؟. يقول: "لا.. لا.. قبل هذا قضيت سنتين في السجن المركزي". أو يحدث أن أسمع إجابة من هذا النوع: "أنا جئتُ في السنة التي قتلوا فيها ديربين"، أو: "جئت في سنة وفاة ميتسول".

في السطر التاسع كنت أسجل العمل الأساسي للشخص أو حرفته. في السطر العاشر – القراءة والكتابة. عادة كان السؤال يُطرح كالتالي: "هل تُتقن قواعد القراءة والكتابة؟"، لكني كنت أستفسر على النحو الآتي: "هل تستطيع القراءة؟". وقد أنقذتني هذه الصيغة من الإجابات غير الدقيقة، لأن الفلاحين الذين لا يستطيعون الكتابة لكنهم يفكون الخط المكتوب عادة ما يقولون إنهم أميون. وهناك فلاحون يدفعهم التواضع للتظاهر بأنهم جهلة فيقولون: "ومن أين ستأتينا القراءة؟ ما الذي يمكن لأمثالنا نحن أن يعرفوه؟". فقط عند تكراري للسؤال يقولون: "كنتُ في وقت ما أفك الخط لكن الآن نسيت. نحن مجرد أناس جهلة، فلاحون باختصار". ومن كان نظرهم ضعيفا، أو أصابهم العمى، يعتبرون أنفسهم جهلة أيضا.

السطر الحادي عشر يخص الحالة العائلية. متزوج، أرمل، عازب؟. فإذا كان متزوجا فأين؟ في بلدته.. أم هنا في سخالين؟. مع ذلك فإن كلمة متزوج في سخالين، أو أرمل، أو عازب، لا تحدد الوضع العائلي الفعلي للشخص. ففي حالات كثيرة ستجد الكثيرين من المتزوجين يقاسون من حياة الوحدة بدون معاشرة زوجية نظرا لأن زوجاتهم يعشن في بلداتهن البعيدة، ولا يوافقن على الطلاق. أما العزاب والأرامل فإن لهم عائلاتهم هنا، ولديهم أولاد من نسلهم. لذلك كنت أسجل كلمة "وحيد" لتحديد وضع الذين يعيشون بمفردهم رغم أنهم مسجلون بصفتهم متزوجين.

في سخالين فقط وليس في أي مكان آخر في روسيا يتمتع الزواج غير الشرعي بهذا الانتشار الواسع النطاق والعلني متجسدا في شكل غير مألوف. المعاشرة غير القانونية، أو كما يطلقون عليها هنا المعاشرة الحرة لا تثير استياء أحد في الإدارة الحكومية أو الإدارة الدينية، بل ويتزايد هنا ذلك النوع من العلاقات ويلقى التأييد. هناك قرية لن تعثر فيها كلها على معاشرة واحدة تحت غطاء قانوني. ويقيم الأزواج "الأحرار" حياة منزلية مشتركة على الأسس ذاتها التي يقوم عليها الزواج القانوني وينجبون أطفالا للجزيرة، ومن ثم ليس هناك ما يدعو عند تسجيلهم لوضع قواعد خاصة بهم.

أخيرا السطر الثاني عشر: هل يتلقى الشخص إعانة من الحكومة؟. أريد هنا من خلال الإجابات على ذلك السؤال أن أوضح أية شرائح من السكان لا يسعها أن تعيش من دون دعم الحكومة المالي، وبعبارة أخرى أريد أن أطرح السؤال التالي: من الذي يُطعم الجزيرة؟ الدولة؟ أم أن الجزيرة هي التي تُطعم نفسها؟. بداية يتلقى كل المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة إعانات في شكل طعام، أو أمتعة، أو نقود، وكذلك الذين يستوطنون في السنوات الأولى اللاحقة على قضائهم فترة الحكم، وأيضا العجزة، وأطفال أشد العائلات فقرا. وعلاوة على المسجلين رسميا باعتبارهم رجال معاشات، سجلتُ أيضا الذين يعيشون على حساب الدولة والمنفيين الذين يحصلون على أجور مقابل الخدمات التي يقومون بها مثل المدرسين والمشرفين والكتبة وغير ذلك.

كنتُ أتنقل من كوخ إلى كوخ بمفردي. أحيانا كان يرافقني أحد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، أو مستوطن يشعر بالملل فيأخذ على عاتقه دور المرافق. وكان يمضي خلفي أو يتبعني مثل ظلي من على مسافة محددة مراقب يحمل مسدسا أرسلوه ورائي احتياطا ربما أحتاج إليه. وكان جبينه يتصبب عرقا على الفور إذا توجهت إليه بسؤال ما، ويجيبني: "لا أستطيع أن أعرف يا صاحب السعادة". عادة كان مرافقي هذا يمشي حافي القدمين بدون غطاء للرأس. يتقدمني وهو يحمل المحبرة. يفتح بضجة باب الكوخ. يسرع هامسا بشيء لساكن الكوخ. الأرجح أنه ما يتصوره بشأن الاستمارة التي أقوم بتعبئتها.

في مستعمرة المستوطنين يحظى كل مائة رجل بثلاثة وخمسين امرأة. هذه النسبة صحيحة فقط بالنسبة لمن يعيشون في الأكواخ. هناك أيضا بعض الرجال الذين يبيتون داخل السجون. وهناك الجنود من العازبين، الذين يلزمهم - وفق تعبير أحد المديرين هنا - "موضوع لإشباع حاجاتهم الطبيعية ".. ويأتي إلى الجزيرة ليس فقط المومسات والمجرمات، فقد أصبح من السهل على نساء المجرمين وبناتهم اللواتي يردن اللحاق بآبائهن وبأزواجهن

أن يأتين إلى هنا بفضل الإدارة المركزية للسجون والأسطول الذي شق طريقا مريحا بين القسم الأوروبي من روسيا وسخالين. منذ فترة قصيرة، لحقت امرأة بزوجها باختيارها، فكان نصيبها إشباع حاجة ثلاثين مجرما. في الوقت الحالي فإن وجود نساء من هذا النوع الحر أصبح أمرا مميزا للجزيرة، وأمسى من الصعب أن نتصور مراكز سكانية مثل: "ريكوفسكي"، أو "نوفو-ميخايلوفكا" بدون تلك الشخصيات المأساوية التي "جاءت لكي تتدارك حياة زوجها ففقدت حياتها هي". من هذه الزاوية قد تشغل سخالين موقعا متقدما بين المنافي كلها عبر التاريخ.

وسأبدأ بالنساء اللواتي حُكم عليهن بالأشغال الشاقة. في الأول من يناير عام 1890 كانت نسبة النساء المجرمات في المناطق الثلاث بالجزيرة تساوي تحديدا 11,5% من إجمالي المحكوم عليهم. ومن وجهة نظر تعمير تلك المناطق كان لتلك النساء ميزة هامة: فكلهن يأتين إلى الجزيرة في عمر الشباب نسبيا، والغالبية العظمى منهن نساء من النوع الحار. حُكم عليهن بسبب جرائم الحب الرومانسي، أو جرائم ذات طابع عائلي. تقول الواحدة منهن: "جئت لأني قتلتُ زوجي"، أو تقول: "جئت لأني قتلتُ حماتي"، كلهن قاتلات، ضحايا للحب، أو الاستبداد الأسري، وحتى اللواتي جئن بسبب إضرام حريق أو تزييف نقود، حُكم عليهن في واقع الأمر بسبب الحب. لأن العشاق هم الذين اجتذبوهن للجريمة. إن عنصر الغرام يقوم بالدور الحاسم في حياتهن المحزنة قبل وبعد المحاكمة. وفي رحلة السفن – أثناء نقلها النساء إلى المنفى- تروج بين النساء شائعة أنهم في سخالين سيزوجونهن غصبا عنهن. ويشعرن بقلق شديد من جراء ذلك. وحدث أن بعضا من أولئك النسوة توجهن برجاء إلى إدارة السفينة للتدخل ومنع تزويجهن بالقوة. منذ نحو 15-20 سنة مضت كانت النساء المحكوم عليهن بالأشغال الشاقة يلتحقن ببيوت للدعارة فور أن يهبطن إلى الجزيرة. وقد كتب فلاسوف في تقرير له يقول: "في جنوب سخالين يتم تسكين النساء في الجناح الذي تقع فيه المخابز. ثم أصدر مدير الجزيرة أمره بتحويل القسم النسائي إلى بيت للدعارة". أما الحديث عن عمل ما فلم يكن أمرا واردا، ذلك أن النساء المذنبات أو اللواتي لا يستأهلن نعيم الرجال كن وحدهن يخدمن في المطبخ، أما الأخريات فكن يُشبعن الاحتياجات، ويسكرن حتى الثمالة. وفي نهاية المطاف كانت النساء – حسبما كتب فلاسوف – يبلغن من العهر درجة أنهن يبعن أطفالهن في نوبة سكر من أجل قليل من الكحول.

الآن حين تصل دفعة من النساء فإنهم يسيرون بهن فيما يشبه الاحتفال من رصيف الميناء حتى السجن. على الطريق تجرجر النساء أقدامهن بتعب، منحنيات تحت وطأة الحقائب والأربطة، لم يثبن بعد إلى رشدهن من أمراض البحر، وخلفهن حشد من النسوة والرجال والأولاد وأفراد من الإدارة كما يحدث في الأسواق عند تقديم عرض لمهرج. ويسير الرجال وفي رؤوسهم فكرة واضحة بسيطة: لابد لنا من امرأة للبيت. أما النساء فينظرن إن كانت في الدفعة الجديدة امرأة من القرى التي جئن هن منها. الكتبة والمفتشون يبحثون عن "البنات". هذا المشهد يحدث عادة عند المساء. توضع النساء في زنزانة تم إعدادها من قبل ويغلق عليهن الباب. ثم تنطلق الأحاديث طيلة الليل بين الرجال في السجن وفي المركز عن الدفعة

الجديدة من النسوة وعن روعة الحياة العائلية وعن أنه يستحيل تدبير شئون البيت والحياة بدون امرأة. في الليالي الأولى والسفينة مازالت فـي المينـاء لم ترجع بعد تمضي عملية تقسيم النساء على المناطق. يبدأ التقسيم بحصة كبار الموظفين، وتحصل المناطق التابعة لهم على نصـيب الأسـد مـن حيـث الكمية أو النوعية. المناطق الأبعد قليلا تحصـل علـى الأقـل جـودة، أمـا فـي الشمال فتجري عملية انتقاء دقيقة جدا: هنـا كأنمـا عـبر فلـتر للتنقيـة تبقـى فقط الأكثر شبابا وجمالا. لذلك فإن الحياة في جنـوب سـخالين تكـون عـادة من نصيب العجائز تقريبا، أو اللواتي "لا يستأهلن نعيم الرجال".

في مركز "كورساكوف" توضع النساء القادمات لتوهن في بناية خشبية خاصة. ويقرر مدير المنطقة والمشرف على القرية من هو الفلاح أو المستوطن الذي يستحق الحصول على امرأة. عادة تكون الأولوية للرجال ذوى السلوك الحسن الذين يدبرون شئونهم ويعتنون بأكواخهم. تتلقى تلك الصفوة القليلة العدد أمرا بالحضور في يوم محدد وفي ساعة معينة إلى السجن في المركز لاستلام النسوة. في اليوم المحدد على امتداد الطريق العمومي نحو المركز، ترى هنا وهناك "الخطباء" حسبما يطلقون عليهم هنا بنوع من السخرية: أحدهم يرتدي قميصا أحمر، والآخر يضع على رأسه قبعة غير مألوفة، والثالث في حذاء لامع بكعب عال اشتراه منذ فترة قصيرة من مكان وفي ظروف مجهولة. وحين يصل الرجال جميعا إلى المركز يدخلونهم معا إلى البناية الخشبية و يتركونهم فيها مع النساء. في الربع أو النصف ساعة الأولى يدفع المرء من الخجل والحرج إتاوة الزواج. يتسكع الرجال صامتين وهم يختلسون النظر بصرامة إلى وجوه النسوة. ينتقي كل واحد امرأة: المهم ألا يكون أنفها في السماء، ألا تكون ابتسامتها مستهزئة، أن تكون جادة تماما، وأن تشعر بالعطف على قبح الرجال، وسنهم المتقدمة، وهيئتهم كمحكوم عليهم. يتسكع الرجل ويحدق ويريد أن يخمن مِن وجوه النسوة: أية واحدة منهن تصلح ربة دار طيبة؟ أتكون واحدة من الشابات؟ أم من المتقدمات في السن؟. يجلس بالقرب من إحداهن ويشرع في مخاطبتها بكلام من قلبه. تسأله: هل عنده إبريق للشاي؟ بم تغطى سقف الكوخ؟ بالتبن أم بألواح الخشب؟. يجيبها الرجل أن لديه إبريقا وحصانا وعجلة عمرها سنتين، وأن الكوخ مسقوف بألواح خشبية. بعد ذلك الاختبار حين يشعر الاثنان بأن كل شيء على ما يرام، تحزم المرأة أمرها وتسأله: "طيب.. لكن.. ألن تسيء معاملتي؟".

هكذا ينتهي هذا المقطع الذي رسمه تشيخوف من صورة للإنسانية حيــن تهبط في معاملتها لبعضها البعض إلى حد البربرية.

ذات يوم قام الأديب الكسـندر كـوبرين بزيـارة إلـى تشـيخوف فـي بيتـه بيالطا. وقال له تشيخوف وهما جالسان في حديقة البيت: "لقد غُرست كـل شجرة هنـا فـي حضـوري، وكـان المكـان مـن قبلـي خرابـة مليئـة بالأحجـار والأشواك. وجئتُ أنـا إلـى هنـا وجعلـت مـن هـذه البقعـة ركنـا مهـذبا جميلا. أتدري. بعد ثلاثمائة أو أربعمائة سنة ستصبح الأرض كلها حديقة غنـاء". كـان حلم تشيخوف كله أن تغدو الأرض "حديقـة غنـاء" وأن تصـبح حيـاة الإنسـان "مهيبة وجميلة كقبة السماء".

* * *

نجوم كثيرة.. وقمر واحد

التقيت في روسيا بأدباء كثيرين. في أغلب الأحيان حدث ذلك بالمصادفة أو بحكم عملي كمراسل صحفي. التقيت بجنكيز أيتماتوف، والشاعر المعروف يفجيني يفتوشنكو، والروائي الشهير فالنتين راسبوتين، والكاتب أناتولي سفرونوف وغيرهم. قابلت أيضا الشاعر العظيم رسول حمزاتوف وكانت قصائده ملء السمع والبصر. كان لقائي الأول به في شارع "بافارسكايا" بمقر اتحاد الكتاب في بيت قديم من طابقين كان ملكا للروائي العظيم ليف تولستوي ويقال إنه في ذلك البيت بدأ كتابة روايته الشهيرة "الحرب والسلام". قدمتني الصديقة "أولجا فيلاسوفا" إلى الشاعر الكبير، فاقترح على الفور أن نتجه لمطعم الاتحاد بالطابق الأرضي لنتغدى معا وسار أمامنا وهو يضحك ويمزح بصوت مرتفع. كان حمزاتوف ممتلئا قصير القامة، رأسه ضخم وصوته غليظ. مفعما بالطفولة والمودة، يحرك يديه كثيرا، وتتبدل تعابير وجهه كل لحظة بحيوية وعمق إنساني غريب. أحببته منذ أن التقيت به.

في الغربة كنتُ كثيرا ما أشعر أنني مثل عود قصب - لا ينمو إلا في دفء الشمس- لكنه غُرز بالقوة في صقيع بارد، فلا هو أصبح نباتا آخر ولا الأرض صارت منه دافئة. وعندما كانت تعتصرني لحظات الغربة تلك كنت أبحث عن صوت رسول حمزاتوف الجهير الطيب. وما إن أكلمه في الهاتف حتى أشعر بالطمأنينة. كان يكفيني وأنا أذرع شوارع موسكو المكسوة بالثلوج البيضاء أن أتذكر أن حمزاتوف يحيا ويتنفس هنا في مكان ما لكي أشعر

على الفور أن قوى الخير أكبر من الشر، وأن هذا العالم لابـد أن يصـبح يومـا ما أفضل وأجمل.

كلمته ذات يوم فعاتبني لأنني لا أتصـل بـه إلا قليلا. قلـت لـه "أخشـى أن آخذ من وقتك وأشغلك عن قصـيدة أوعمـل". هتـف بـي "يـا أحمـد أنـا أمنـح أصدقائي وقتي المشغول، أما الغرباء فأترك لهم أوقات الفراغ"!

عاش حمزاتـوف أشـهر مـن وطنـه الصـغير "داغسـتان" الـتي تقـع فـي القوقــاز بجنــوب روســيا، وكــان وطنــه يُنســب إليــه، فيقــال "داغســتان حمزاتوف"! ولم يعشق حمزاتوف وطنـا سـوى بلـده الجبلـي الصـغير الـذي دخله العرب في القرن السابع ميلادي وظلـت الثقافـة العربيـة تسـوده نحـو ألف عام. في إحدى قصائده الجميلة يقول حمزاتوف:

" نجوم كثيرة.. وقمر واحد
نسـاء كثيرات.. وأم واحدة
بلاد كثيرة.. ووطن واحد ! "

ولد رسول حمزاتوف في قرية صغيرة بين أحضان الجبـال، وكـان والـده ينظم الشعر باللغة الآفاريـة القوميـة وباللغـة العربيـة أيضـا، حـتى أن هنـاك سـاحة ونصـب تـذكاري باسـم والـده فـي العاصـمة محـج قلعـة. قـال لـي حمزاتوف ذات مرة ضاحكا إن والده كـان إذا كتـب قصـائد غـزل فـي نسـاء أخريات فإنه كان يكتبها باللغة العربية لكي لا تفهمها أمه إذا عثرت عليها!

لمع اسم حمزاتوف مع صدور أول ديوان له عام 1943، وكانت قصائده ومضا جديدا حاراً من كبرياء أهل الجبال الـذين عاشـوا يثقـون أن الرصاصـة أعـز علـى القوقـازي مـن جرعـة المـاء ورغيـف الخـبز، وظلـوا أمـدا طـويلا يسترجعون صيحة الإمام شامل "قدسوا الحرية يا أهل الجبال ودافعـوا عنهـا كأنها أمهاتكم، لا يغرنكم ذهب ولا ثروة، فليس لكم حياة من دون الحريــة يــا أهل الجبال"! هو الإمام الذي خاض حربا ضـد القياصـرة اسـتمرت نحـو ربـع القرن (1836- 1859) حتى أجبرته موازين القـوى علـى الاستسـلام أمـام قوات العقيد "لازاريف" قائد قوات القيصر الكسندر الثاني. وبعـد مئـة عـام ينشد المغني الشيشاني عليم سلطانوف للإمام غنوة يقول له فيها "مـا مـن مصير أشد قسوة من البسالة المحكوم عليهـا بـالموت". هـي الحـرب ذاتهـا التي كتب عنها فريدريك انجلس في مقاله "فرص الحـرب" قـائلا: "إننـا لـم نشهد مع تعاقب عدة أجيال حروبـا حقيقيـة فـي وسـط أوروبـا تشـارك فيهـا الشعوب بنفسها، لكننا رأينا هذه الحروب فقط في القوقـاز والجزائـر حيـث استمر النضال لحوالي عشرين عاما".

خرج حمزاتوف من هذا التاريخ المشبع بالكبرياء، وكان طبيعيـا أن يكتـب أن صهوة الخيل في القوقاز هي وسادة الرجال الذين يولدون فرسـانا علـى سروج الخيل أو يرقدون تحت الثرى. وكان لحمزاتوف بيتان، واحد في محـج قلعة عاصمة داغستان، والثاني في شارع جوركي بموسكو. دعاني ذات يوم إلى الغداء معه وقدم لي زوجته قائلا: فاطمة. ثم جاءت ابنته الكبرى فأشـار إليها قائلا: فاطمة. ثم أقبلت ابنتـه الثانيـة فسـألته ضـاحكا: فاطمـة أيضـا؟.

قهقه قائلا: لو كانت هذه هي أيضا فاطمة لأصبحتُ أنا أستاذا في العلوم الفاطمية!

كانت كل أحاديثه شعرا منثورا. سألته مرة: تعيش في داغستان عشرون قومية لكل منها لغتها الخاصة. ألا تحلم بأن يحل يوم تتكلم فيه داغستان لغة واحدة؟. أجابني على الفور وهو يبتسم: عشرون لغة! السماء مليئة بالنجوم فهل تصبح السماء أجمل إذا نحن جمعنا النجوم كلها في شمس واحدة؟! لم لا ترى جمال التنوع؟

عندما أخذت الدولة السوفيتية في الانهيار كتب حمزاتوف: "أصبح سعر الطماطم أغلى من سعر البشر، وصار كل شيء يباع ويشترى، الضمير والبطولة، الموهبة والجمال، النساء والأطفال، الشعر والموسيقى، الأرض والأمومة". وامتدت حرائق الانهيار إلى أطراف روسيا وإلى جنوبها حيث الشيشان وداغستان وأحسستُ عن بعد بألمه من بوادر تمزق وطنه الصغير بالصراع والحرب. كلمته فقال لي "لقد بدأت البغضاء تشق طريقها إلينا. البعض يريد تقسيم داغستان من شدة التخمة والشبع، والبعض الآخر من شدة الجوع، وعندما تزداد وطأة الأحمال يأخذ البؤساء في سحق بعضهم البعض بينما ينتشي الأثرياء ويمعنون في السفاهة"!

في مايو 1995 قمتُ برحلة إلى الشيشان لتغطية الحرب الشيشانية الروسية لصحيفة عربية، وكان الوصول إلى الشيشان مباشرة مستحيلا، كان علي أن أمر أولا بداغستان وطن حمزاتوف ومن الحدود هناك إلي الشيشان. سافرت من موسكو بالطائرة وهبطت في مطار محج قلعة. خرجت إلي وسط المدينة وحجزت حجرة في فندق "لينجرادسكايا" وضعت حقائبي ثم خرجت بعد ذلك لأتفرج على محج قلعة. أدهشتني وأنا أنعطف من شارع لآخر أنغام الموسيقى العربية المنبعثة من محلات وأكشاك بيع الشرائط الموسيقية! كنت أسير وتتناهى لسمعي طوال الوقت أغنيات فيروز وعبد الحليم حافظ ومحمد عبد الوهاب والموشحات السورية والأغنيات العراقية وابتهالات الشيخ النقشبندي وتلاوة قرآنية للشيخ الحصري! خلال الأيام التي عشتها في محج قلعة تعرفت إلى أسرة داغستانية كان ابنها الأكبر طبيبا فتحدث معي عن تقاليد وعادات بلده. في اليوم التالي دعاني لحضور عرس داغستاني. وقال لي في الطريق أن الفتاة عندهم لا تستطيع الزواج بدون موافقة أسرتها لكن مع وضع رأيها في الاعتبار. ومازالت عند بعض القوميات عادة فض بكارة الفتاة ليلة زفافها على يدي خالاتها أو عماتها والاحتفال بطهارة العروس بإطلاق الرصاص في الهواء. أما العرس ذاته فيستمر أربعة أيام، ويبدأ بمسيرة العروس إلى بيت زوجها محاطة بأهلها من الرجال وقد تمنطقوا بالسيوف، والنساء حولها يضربن على الدفوف وينشدن لها:

" يا قمر الجبال.. حلالك حلالك
تكسرت المرآيا.. من شدة جمالك".

عندما تطأ العروس بيت زوجها يلقاها أهله وهم ينثرون القطع النقدية على وشاح رأسها الأبيض وفي الهواء، ثم تتقدم أم زوجها فتضع ملعقة من العسل الأبيض في فم العروس بشرى بحياة حلوة.

تُعد داغستان مركز الثقافة وسط جمهوريات القوقاز الأخرى. ومنها خرج الإمام شامل، الذي وُلد في قرية "جميري" بين أحضان الجبال الداغستانية، ثم قاد عام 1834 أكبر ثورة في تاريخ القوقاز، ونجح في إقامة أول دولة(إمامة) تضم شعوب القوقاز وجعل اللغة العربية لغتها الرسمية في المكاتبات والمراسلات والاتفاقيات والخطابات الموجهة إلى النواب. وعندما أراد الإمام أن يضع دستورا لدولته أسعفه محمد علي باني نهضة مصر فأرسل إليه ضابطا مصريا فوضع له "نظام" (أي دستور) تلك الدولة! وكان نضال الإمام شامل قد اتسع إلى تهديد تركيا التي كان محمد علي يسعى هو أيضا للتحرر منها، فاتخذ من الإمام شامل حليفا له.

اتجهتُ إلى الشيشان والتقيت هناك بجوهر دودايف رئيس الجمهورية حينذاك، وأصلان ماسخادوف رئيسها لاحقا، وعشت مع المقاتلين أياما تحت القصف، ثم رجعت إلى داغستان، وبينما أنا أتجول في شوارعها في اليوم السابق على عودتي لموسكو إذا بي أرى أمامي رسول حمزاتوف!

رحب بي بحرارة وهو مندهش من وجودي في بلده، وقال لي "ما الذي تفعله هنا؟ الناس يهاجرون من مناطق الصراع وأنت تأتي إليها؟". قلت له إن الصحيفة التي أعمل مراسلا لها كلفتني بتغطية الحرب الروسية الشيشانية. اغتم قليلا وقال "لم أعد الآن أفارق بيتي في محج قلعة. لقد تمت الجريمة الكبرى على يدي جورباتشوف ثم الرئيس الروسي بوريس يلتسين. انتهت الاشتراكية والديكتاتورية برحيل بريجنيف وتشيرنينكو، لكن السوق والديمقراطية مع جورباتشوف ويلتسين لم تأتنا بخير. كان الناس فيما مضى يشعرون بوطأة الكذب والخداع، أما اليوم فيشعرون بوطأة الكذب والخداع والقسوة والكراهية والحرب. المأساة أنهم نفس الممثلون القدامى وقد غيروا الأقنعة وشرعوا يقومون بأدوار جديدة. لقد وُلدت شمولية جديدة بديلا عن الشمولية القديمة، وكان من المستحيل أن تشتعل الحرب في الشيشان لولا الديكتاتورية الجديدة. المؤسف أن الكثيرين بدلوا مواقفهم في غمضة عين." صمت وأضاف: "يمكن للمرء أن يبدل قبعته.. لكن لا يمكن أن يبدل رأسه"!

كنت أعلم أن زوجته الرقيقة فاطمة قد تُوفيت ولم أشأ أن أنكأ جرحه. بعدها بسنوات قليلة رحل حمزاتوف عن عالمنا، وقبل أن يموت بأسابيع ترك ملاحظة يقول فيها "كانت حياتي مسودة كنت أتمنى لو أتيح لي الوقت لتصحيحها. إن كنت قد أخطأت في شيء فإن عذري أنها المرة الأولى التي أحيا فيها على سطح الكرة الأرضية".

كثيرا ما أتذكر حمزاتوف بحب غامر وحينذاك أسأل نفسي: "ترى كم من البشر قد يُتاح له أن يحيا مسودة عظيمة كتلك التي عاشها الشاعر الكبير؟ كل لحظة فيها كانت شعرا خالصا ومحبة للعالم؟".

* * *

أسطورة مواجهة

هذا كاتب روسي صارع ليس دولة بل دولتين، كافح ليس نظامـا سياسـيا واحدا بل نظامين. لـم تسـتطع الشـيوعية السـوفيتية أن تكسـر قلمـه، ولـم تتمكن الرأسمالية الروسية مـن شـرائه بالأوسـمة والمـال، فأصـبح نموذجـا للأديب المقاتل حين يضع نصب عينه هموم وحيـاة شـعبه وليـس استرضـاء النظام أو تفادي الصدام معه. إنه ألكسندر سولجينتسين، الذي قطـع طريقـا مشابها للطريق التي قطعها جنكيز أيتماتوف، فقد جاء هو الآخـر مـن وسـط فقير، وعاش طفولة حرمان وعوز شديدين، لكنه تعرض للاعتقال والتنكيـل، وظل مخلصا للحقيقة.

ولد سولجينتسين في 1918 في مدينة كيسليفود بالقوقاز، تـوفي والـده – وكان فلاحا روسيا بسيطا- قبل مولده، وعاش مع والـدته فـي فقـر مـدقع، وأنهـى مدرسـة متوسـطة فـي "روسـتوف". ثـم التحـق بكليـة الرياضـيات والفيزياء. وعام 1940 انتسب إلى كلية الآداب بمعهد الفلسفة بموسكو.

عند اندلاع الحرب العالمية الثانية تم استدعاؤه للخدمة العسـكرية ونـال وساما من الدرجة الثانية، لكنهم اعتقلوه في فبراير 1945 وهو برتبة نقيـب بسبب آرائه المعادية لستالين والقيادة السوفيتية والتي عبر عنها في رسائل لأحد أصـدقائه. حُكـم علـى الكـاتب بالسـجن لمـدة ثمانيـة أعـوام وهـو فـي السابعة والعشرين من عمره وفقا للمادة رقم "58" الشهيرة زمن ستالين. قضى سولجينتسين فترة من مدة الحكم في سيبريا أقسى مكـان للسـجون والمنافي، ثم نُقل إلى معسكرات العمل الإجباري بضواحي موسكو، وقضـى الثلاث سنوات الأخيرة من 1950 حتى 1953 في معسـكرات مشـابهة فـي كازاخستان. قبـل خروجـه مـن السـجن اكتشـف سولجينتسـين أنـه مصـاب بسرطان في المعدة، وأُجريت له عملية جراحية داخل المعسـكر بإمكانيـات طبية ضعيفة. لكن سولجينتسين اسـتجمع عزيمتـه وأحلامـه وكافـح المـرض اللعين وانتصر عليه!

فـي اليـوم الـذي خـرج فيـه مـن سـجنه خطـرت لـه فكـرة روايتـه الشهيرة"جناح السرطان" التي كتبها فيما بعـد وجلبـت لـه الشـهرة، وصـور فيها انتصار الإرادة الإنسانية على المـرض فـي أشـق الظـروف مستحضـرا تجربته الخاصة. وكان سولجينتسين قد بدأ كتابـة الشـعر مبكـرا، وطـرأ أول مشروع روائي له وهو شاب في التاسـعة عشـرة. الآن يخـرج إلـى الحريـة. يكتب "جناح السرطان". ويتبادل المثقفون والأدباء قراءة روايته في السـر. ثـم يكتـب سولجينتسـين روايتـه الثانيـة الجميلـة "الـدائرة الأولـى"، وتظـل الروايتان ممنوعتين داخـل الاتحـاد السـوفيتي، ويتـم تهريـب الروايـتين إلـى خارج البلاد فتجدان تقديرا واسعا في الغرب الذي تعرف للمرة الأولى علـى حقيقة معسكرات العمل السوفيتية.

عام 1956 ينتقل الكاتب إلى مقاطعة "فلاديمير" ويقوم هنـاك بتـدريس الفيزياء والرياضيات في مدرسة بقرية صغيرة. ويكتب عن الـبيت المتواضـع الذي عاش فيه روايته "حوش ماتريونا".

في تلك السنوات تـوفي سـتالين وصـعد نيكيتـا خروتشـوف إلـى الحكـم وشن حملة على ديكتاتورية سـتالين وحكمـه وبـدأت المرحلـة الـتي عُرفـت بمرحلة "ذوبان الثلوج". عام 1962 سمح الرئيس خروتشـوف بنشـر روايـة سولجينتسين "يوم من حياة إيفان دنيسوفيتش" في المجلـة الأدبيـة "نـوفي

مير". الرواية تصور حياة نجار روسي بسيط يكافح من أجل البقاء على قيد الحياة في معسكر للعمل الإجباري. بفضل هذه الرواية تحول اسم سولجينيتسين إلى علم، وسارعت دور النشر الغربية بترجمة الرواية ونشرها على أوسع نطاق، وغدا الكاتب أحد أشهر الأدباء في الخارج. أما داخل الاتحاد السوفيتي فقد أحدثت الرواية أثرا يشبه الانقلاب الفكري والأدبي. وعندما التقي الزعيم السوفيتي نيكيتا خروتشوف بالكاتب في 12 أكتوبر 1962 صرح بقوله "أعترف أنني كنت أقرأ الرواية في البداية بروح متحاملة، لكنها اجتذبتني بعد ذلك شيئا فشيئا، وأعتبر أنها عمل قوي للغاية، هي لا تستدعي المشاعر الثقيلة رغم أنها مليئة بالمرارة.. بل إنها رواية تدعو للثقة بالحياة حسب اعتقادي ومكتوبة من منطلق حزبي".

وتوالت على سولجينتسين آلاف الرسائل من قراء ومعتقلين سابقين يصفون تجاربهم في تلك المعسكرات. أصبحت تلك الرسائل ذخيرة اعتمد عليها الكاتب فيما بعد عندما كتب روايته "أرخبيل جولاج" (جزر المعتقلات) التي رصدت عمليات التنكيل السوفيتية من 1918 حتى 1956. ورغم امتداح خروتشوف لرواية "يوم من حياة إيفان دنيسوفيتش" إلا أنهم منعوا إعادة طباعتها، كما منعوا نشر أعمال سولجينتسين الجديدة! لكن ذلك الحصار لم يدفع الكاتب لليأس، فواصل الكتابة بصبر ودأب تسعة أعوام أخرى ما بين 1958 حتى 1967 بدون أن ينشروا له حرفا! عام 1969 قرر اتحاد الكتاب السوفيت طرد سولجينتسين من عضوية الاتحاد. بعدها بعام واحد نال الكاتب جائزة نوبل العالمية. وجاء في حيثيات منحه الجائزة أن الكاتب "يمثل القوة الأخلاقية ويواصل بها تقاليد الأدب الروسي".

يمتنع سولجينتسين عن السفر لاستلام الجائزة خشية ألا تسمح له السلطات السوفيتية بالعودة إلى روسيا. السلطة – عهد ليونيد بريجنيف- اعتبرت أن منح الكاتب جائزة نوبل عمل سياسي عدائي من جانب الغرب. في 7 يناير 1974 صرح الرئيس ليونيد بريجنيف في اجتماع للمكتب السياسي للحزب بقوله "صدرت رواية جديدة لألكسندر سولجينتسين بعنوان "أرخبيل جولاج" وحتى الآن لم يقرأها أحد، لكن محتواها معروف مسبقا. إنه هجاء فظ للسوفييت.. ومن ثم فإن لدينا كل المسوغات الكافية لنضع سولجينتسين في السجن، فقد تجرأ على تاريخنا السوفيتي وعلى السلطة. لقد تمادى كثيرا هذا العنصر المعربد المسمى سولجينتسين ولم يعد يأبه بأي شيء".

على الفور تم إلقاء القبض على الكاتب الكبير في 12 فبراير 1974 وهو في السادسة والخمسين من العمر بتهمة "خيانة الوطن"! بعدها يتم نفيه إلى ألمانيا الغربية. ويقرر سولجينتسين أول الأمر أن يعيش في "زيورخ" بسويسرا، لكنه سرعان ما يرحل إلى باريس التي صدر فيها الجزء الأول من روايته "أرخبيل جولاج"، ومن هناك شد رحاله إلى أمريكا واستقر هناك وفي أمريكا كتب عام 1976 ملحمته "العجلة الحمراء". استقبل الغرب الكاتب الكبير بحفاوة بالغة وترجم أعماله إلى كل اللغات الأوروبية، وتوقع في المقابل أن يقدر سولجينتسين كل ذلك الاهتمام، لكن الكاتب فاجأ الجميع في خطاب له في هارفارد عام 1978 بقوله: "إن ديمقراطية التعددية الحزبية لا تصلح بالحتم لكي تكون نموذجا لكل البلدان الأخرى".

وتعددت التصريحات التي أظهرت أن سولجينتسين لا يتفق مع كل ما يسود النظم السياسية الغربية من مفاهيم.

وكما فتحت قيادة خروتشوف في حينه الباب لنشر بعض أعمال سولجينتسين فإن صعود جورباتشوف إلى الحكم 1985 وإعلانه إعادة البناء فتح الباب لإعادة نشر روايات سولجينتسين في الداخل، كما أعيد الاعتبار والجنسية إلى الكاتب الكبير في أغسطس 1990، ووجه الرئيس جورباتشو الدعوة للكاتب الكبير لكي يعود إلى بلاده. في سبتمبر من العام ذاته نشر سولجينتسين كتيبا صغيرا بعنوان "كيف نعيد بناء روسيا؟". وزعت منه سبع وعشرون مليون نسخة داخل الاتحاد السوفيتي! وهو رقم لم يصل إليه أي كاتب من قبل. في كتابه ذلك يستعرض سولجينتسين رؤاه ككاتب روسي قومي يتمسك بإحياء القومية الروسية، وترسيخ النزعة السلافية، والانطلاق من الديانة المسيحية، والأخذ بالتطور العلمي والثقافي، وتقديس كرامة الانسان وحريته.

في مايو 1994 عاد سولجينتسين إلى روسيا لكن بطريقته الخاصة. ليس هبوطا في مطار موسكو ليستقبله الصحفيون والكاميرات استقبال النجوم، لكنه يرجع بالقطار يمر شهرا كاملا على القرى الروسية الفقيرة. استقبله الشعب الروسي والفلاحون والمثقفون كما يليق بكاتب عظيم، وللمرة الأولى تُجمع وسائل الإعلام على أنه "ضمير الأمة" وأنه "آخر الكتاب الروس العظماء". ترحب بعودته صحيفة إزفستيا بالبنط العريض " الكاتب الذي هزم الدولة السوفيتية"، أما صحيفة "سفودنيا" فتستقبله بعنوان عريض على صدر صفحتها الأولى: "آخر المعلمين الذين أشعلت كلماتهم النار في قلب البشر".

يعود الكاتب إلى بلاده، ويحرص الرئيس الروسي الجديد بوريس يلتسين على الالتقاء به، لكن الكاتب – وليس الرئيس- هو الذي يؤجل اللقاء! ويظل سولجينتسين يتأمل حصاد تجربة الإصلاحيين الروس الذين قوضوا الدولة السوفيتية فتذهله الحقائق حين يجد أن هناك نحو أربعين مليون مواطن روسي أصبحوا يعيشون تحت خط الفقر، وأن الخصخصة المعلنة لم تكن سوى نهب منظم لمقدرات الاقتصاد الروسي وبيعه بأرخص سعر للعصابات والأجانب بدون أن يعود ذلك بشيء على الشعب. أخيرا يعلن الكاتب موقفه من البريسترويكا ودعاة الإصلاح قائلا لصحيفة موسكوفسكي نوفستي: "إن عملية انقاذ الدولة المنهارة في عهد جورباتشوف لم تتضمن سوى إسقاط مفهوم الدولة لا أكثر. أما في عهد بوريس يلتسين فإن الإصلاحات لم تتجاوز الفوضى ونهب ثروات البلاد بدون حد. منذ عام 1993 فاقت نسبة الوفيات في روسيا نسبة المواليد بنحو مليون نسمة تقريبا. ترى أكنا نخسر مليون نسمة من شعبنا سنويا لو أننا دخلنا حربا أهلية؟!" ويصل الكاتب إلى القول: "لم يتمكن حتى الشيوعيون على مدى سبعين عاما من أن يفعلوا بروسيا ما ارتكبه الديمقراطيون الجدد في حقها"!

عام 1996 يقرر الرئيس يلتسين منح الكاتب أعلى وسام في الدولة. كان بوسع الكاتب الكبير أن يحتفظ بصورته في إطار الأسطورة التي كافحت الشيوعية، وأن يظل يتكسب من أسطورة حياته الماضية مكتفيا بنعيمها، وبدون أن يدخل في صراع مع النظام الرأسمالي الجديد ، لكن سولجينتسين يرفض أعلى وسام يقدمه إليه الرئيس، ويرسل برقية إلى

بوريس يلتسين تنشرها الصحف الروسية بذهول "أعتذر عن قبول وسام من سلطة قادت روسيا إلى الخراب"! هكذا أكد الروائي الكبير أنه لم يعد إلى بلاده لكي يتكسب من قصة نضال قديمة، لكنه مازال مؤرقا بالحقيقة والعدالة. ويظل الكاتب العظيم غريبا داخل الرأسمالية كما كان غريبا داخل الشيوعية!

وسرعان ما يخفت اهتمام السلطات والإعلام بالكاتب الذي لا يني يقول الحقيقة. يعشر سولجينتسين بالتجاهل الرسمي له، فيضرب على نفسه نطاقا من العزلة في بيته البعيد بضواحي موسكو. وتمر أعياد ميلاده الأخيرة بدون إشارة رسمية إلى وجوده.

في يونيو 2006 يدلي الكاتب بحديث إلى صحيفة "موسكوفسكي نوفستي" يثير غضب الغرب عليه. ويقول فيه إن "حلف الناتو يضاعف قواه العسكرية بشكل حثيث في شرق أوروبا. ويفتح في الجنوب الطريق للثورات الملونة. ويمد أياديه إلى وسط آسيا مستهدفا بكل ذلك حصار روسيا وسلبها سيادتها".

وتنفتح على الكاتب حملة مسعورة في الصحافة الروسية. يصبح الكاتب الذي تحدى الشيوعية والرأسمالية الروسية وأطماع التوسع الأمريكية مجرد "خائن"! هكذا تتهمه الصحفية فاليريا نودوفورسكايا وتكتب أن موقفه "خيانة وعودة للنغمة السوفيتية القديمة"! ويجد سولجينتسين نفسه- وياللغرابة- متهما بما عاش يحاربه أي بأنه "سوفيتي"! وحين ينشر الكاتب كتابه "معا عبر مائتي عاما" ويتناول فيه العلاقة بين الروس واليهود تهيج عليه الأوساط الصهيونية في روسيا وتعتبر أنه "يقدم الذرائع لمعاداة السامية".

بالرغم من كل شيء ارتجت روسيا كلها والعالم عند رحيل سولجينتيسن عام 2008، وجاء في برقية الرئيس الروسي بوتين لأرملة الكاتب ونجله الأكبر: "إن الشعب الروسي كله ونحن الذين عاصرناه نشعر بالفخر لأن سولجينتسين كان ابنا لشعبنا"، وتنعيه الصحف العالمية كلها. تكتب "التايمز" تحت عنوان "ضمير أمة" تنوه بإبداعه ومواقفه الصلبة عبر كل العهود، وتكتب أسوشيتد برس قائلة: "لقد أيقظ إبداع سولجينتسين في ملايين القراء الإيمان بأن جرأة وشجاعة إنسان واحد يمكن أن تقف في وجه إمبراطورية شمولية كاملة"! وتشير "الديلي تلجراف" إلى أن سنوات الغربة التي قضاها سولجينتسين في الخارج "لم تحوله إلى مواطن غربي، كما أن عداءه للاتحاد السوفيتي لم يحوله إلى نصير للنظام الأمريكي". وينعيه دامير عزت الدين نائب رئيس مجلس المفتيين الروس قائلا:" كان المسلمون الروس يعتبرون ألكسندر سولجينتسين وسيعتبرونه إنسانا وأديبا عظيما دافع عن كرامته في أصعب الظروف، وضرب مثالا لضرورة أن يبقى الإنسان مكافحا من أجل حقوقه وحريته".

كان سولجينتسين آخر الكتاب الروس العظام، عاش حياة كانت مثالا نادرا للقوة الروحية غير المحدودة التي قد يتمتع بها إنسان في مواجهة العالم. لم يشغله سوى الدفاع عن الحقيقة، وعن آمال شعبه، فأصبح بكل ذلك أسطورة أدبية وإنسانية لا تتكرر.

* * *

عند الوداع

لمن عاش في روسيا وقتا فإنها تشبه "النداهة"، ساحرة، فاتنة، ذات جمال طاغ. عليك وأنت ترحل عنها ألا تلتفت خلفك. لأن نظرة واحدة إلى عينيها قد تقيدك إلى مكانك إلى الأبد. هذه الأغنيات الشعبية الروسية بمقاطعها الممتدة، المستقيمة، التي تضرب في سماء كل غرفة وكوخ، بحزن وقوة ووحشة الجماعات القديمة في الكهوف. كل أولئك البنات البديعات الجمال السائرات كأنهن إعلان عن الحياة، عن سحرها وأملها. الأشجار العالية التي تختفي قممها بعيدا في الفضاء بكبرياء وسكينة.

ودعتُ روسيا ونجوتُ بنفسي من هذا الجمال الذي غمرني بدون توقف. شيء ما في روسيا يشبه قلبا كبيرا يتنفس طيلة الوقت. يزفر أنفاسه الدافئة في الضباب، في الطقس المشمس، في الليل. شيء تحسه طيلة الوقت يتنهد، منزلقا إليك من فوق قباب الكنائس المذهبة. سفرة الطعام الروسية التي لا مثيل لها في العالم. في كل مكان يأكل الناس ثم ينفضون من حول السفرة ليواصلوا الجلسة إلا عند الروس. يغطون مائدة كبيرة بكل أنواع السلاطات واللحوم والمشروبات، ويجلسون لا يفارقون المائدة. يأكلون يثرثرون يضحكون. تبدأ الجلسة من المائدة وتنتهي عندها. إذا لم تستطع النداهة أن تجعلك تلتفت إلى نظرة عينيها فسوف تجذبك إليها بنكاتها اللاذعة التي تغوص أبعد من سطح الحياة الظاهرة. فإذا لم تأسرك بالنكات الحادة والطبيعة التي تمتد بلا نهاية في بلد هو الأكبر مساحة في العالم، فسيشدك إليه الوجدان الفريد للشعب الروسي الخشن من الخارج الطيب جدا من الداخل، الذي يشرب الفودكا كثيرا، ليس بسبب البرد كما يعتقد معظم الناس، ولا بسبب الإدمان، لكن لأن ذلك الشعب يعشق الصراحة، وهو شعب متحفظ يلجأ إلى الكحول ليطلق لسانه بالتعبير عما تجيش به نفسه.

إنه الوجدان الروسي الذي اخترع عبارة "ما من ألم غريب". أي أن كل فاجعة في العالم هي فاجعة الإنسان الروسي. شعب يظل يبحث عن الحقيقة والعدالة كأنه مفطور على ذلك. نشأ الأدب لديه منذ بداياته مع جوجول ومسرحياته مرتبطا بدوره الاجتماعي، حتى دوستويفسكي الذي قال: "كل أدب هو عظيم بمقدار ما هو عصري، وممتع، ومفيد".

إذا لم تشدك النداهة بجمالها، وأغنياتها المديدة المقاطع، وأشجارها، وقلبها الذي يتنهد ساخنا في كل الفصول، فسوف تناديك بأمطارها وحزنها الغامض الذي يشيع في ضباب خفيف بلون الطباشير. تقف في مدخل محطة مترو لتحتمي من المطر، فيهبط من سماء الشارع الحمام منزلقا إلى داخل المحطة. ينفض عن ريشه رذاذ الماء، ثم يعاود الرحلة. ترى من مكانك امرأة روسية عجوزا واقفة محنية الظهر شبه عمياء، تمد كفا وتمسك بيدها الأخرى ورقة صغيرة كُتب عليها بحروف كبيرة "ساعدوني لأجل المسيح" !. تفكر في سمة أخرى من سمات هذا الشعب ألا وهي التطرف، والانتقال الحاد من جانب إلى آخر. من الدعوة لتغيير العالم بالمحبة عند تولستوي، إلى المدافع واغتيال القياصرة. من المسيح إلى كارل ماركس. من الشيوعية إلى الابتهالات الدينية.

في حديث مع مواطن بسيط قال لي وهو يضرب فخذه بيده: "لم تعطني الشيوعية أكثر من سروال واحد. يا لها من مأساة! لكن الأكثر إيلاما أن الديمقراطيين حين جاءوا إلى السلطة انتزعوا مني ذلك السروال!".

حاول أن تنجو من كل ذلك. لكنك لن تنجو أبدا من ثقافة روسيا وقصائدها. من بوشكين وتشيخوف وأندريه بلاتونوف وبلجاكوف. من جوجول الذي مات ملتاثا لأنه كلما أراد أن يصور مجتمعا مثاليا ليرضي عنه القيصر والكنيسة خرجت روسيا الحقيقية من بين يديه، فقال عنه تولستوي متأسفا: "لم يستطع عقله الخجول أن يرتقي إلى عبقريته الفنية الحدسية المذهلة".

ودعتُ كل هذا الجمال الطاغي الفاتن. وسرت في أرض المطار. وهي تناديني. لا ألتفت خلفي، لأن نظرة واحدة إلى عينيها قد تجمدك أمام جمالها، فتتبعها مأخوذا، إلى كهفها الغريب المتوهج المشبع بالأساطير والبحث عن معنى لكل شيء.

* * *

الكاتب

- د. أحمد الخميسي مواليد القاهرة 1948. قاص وكاتب صحفي.

- نشر أولى قصصه "الشوق" في أبريل 1965 بمجلـة القصـة الـتي تـرأس تحريرها أ. محمود تيمور، ثم قدمه يوسف إدريس بمجلة الكاتب في ديسمبر 1966.
- صدرت لـه أول مجموعـة قصصـية مشـتركة عـام 1967 عـن دار الكـاتب العربي بعنوان "الأحلام، الطيور، الكرنفال".

من كتبه:

- "كان بكاؤك في الحلم مريرا" مجموعة قصصية مترجمة عن الروسية دار المستقبل العربي بالقاهرة عام 1985
- "قصص وقصائد للأطفال" مترجمة عـن الروسـية - اتحـاد الكتـاب العـرب دمشق عام 1998.
- "نجيب محفوظ في مرآيا الاستشراق" تأليف وترجمـة دار الثقافـة 1989 القاهرة.
- "موسكو تعـرف الـدموع" مجموعـة دراسـات ومقـالات – كتـاب الأهـالي القاهرة 1991.
- "أسـرار المباحثـات السـوفيتية العراقيـة فـي أزمـة الخليـج" بريمـاكوف – ترجمة وتقديم – القاهرة - مكتبة مدبولي – 1991
- "المسألة اليهودية" للأديـب العـالمي دوستويفسـكي - مجلـة أدب ونقـد – العدد رقم 69 – مايو 1991- القـاهرة - وأعـادت مجلـة "زرقـاء اليمامـة" عام 1996 نشر نفس الترجمة.
- "حرب الشيشان" رحلة إلى الجبال – دار المحروسة - القاهرة 1996
- "نساء الكرملين" القاهرة مكتبة مدبولي 1997
- "رائحة الخبز" مجموعة قصص مترجمة عن هيئة قصـور الثقافـة ديسـمبر 1999.
- "قطعة ليل" مجموعة قصصية – القاهرة - ميريت 2004
- "البـاب المغلـق بيـن الأقبـاط والمسـلمين" – الهلالـي – القـاهرة 2008 وأعيدت طباعته بهيئة الكتاب في 2012
- "كناري" مجموعة قصصية – كتاب اليوم – أخبار اليوم – ديسمبر 2010 – فازت بجائزة سـاويرس الثقافيـة عـن أفضـل مجموعـة قصصـية فـرع كبـار الأدباء 2011
- "قطعة ليل" – طبعة ثانية – الكتب خان – القاهرة - 2011
- "نجيب محفوظ في مرآة الاستشراق السوفيتي" – طبعة ثانية – المجلـس الأعلى للثقافة – القاهرة – ديسمبر 2011
- "عيون التحرير فـي الأدب والسياسـة" – مقـالات- دار كيـان – القـاهرة - فبراير 2012
- مسـرحية "الجبـل" أبريـل 2012 – هيئـة قصـور الثقافـة – فـازت بجـائزة المهندس نبيل طعمة بسوريا - المركز الثاني - 2012
- "مجمل تاريخ الأدب الروسي" – قصـور الثقافـة – مـارس 2012 – قـدمه وأشرف على تحريره.
- "رأس الديك الأحمر" مجموعة قصصية – الكتب خان – يناير 2013

-